

خالد محمد خالد

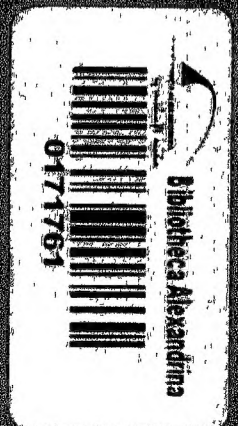
نخلة

ديسمبر ١٩٥٩

الناشر

مكتبة الانجلى المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة ش ٥٠٣٢٧



خالد محمد خالد

نحن البشر

ديسمبر ١٩٥٩

ملتنزعة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد علي قريش (عمارة الزين سابقا)

مراجع تاريخية

- قصة الحضارة :
تأليف «ول ديورانت»
- العالم الحديث :
تأليف «أنور الرفاعي» و «شاكر مصطفى»
- لمحات من تاريخ العالم :
تأليف «نهر» ، ترجمة «لجنة من الاساتذة الجامعيين»
- سمارك :
تأليف «اميل لودفيج» ، ترجمة «محمود إبراهيم الدسوقي»
- كليمنصو :
تأليف «ليون دوديه» ، ترجمة «حسن محمود»
- الثلاث الكبار :
تأليف «دافيد . جي . دالين» ، ترجمة «مصطفى النصولي»

الإهداء

إلى الذين يحبون الجنس البشرى
ويريدون له الحرية ، والعدل ، والسلام

موضوعات الكتاب

صفحة	
٥	• قريتنا هذه
٢٥	• من الحروب الصليبية إلى الحرب العالمية الثانية
٥١	• من الحلف المقدس إلى ميثاق الأطلسي
٧١	• أرباب الأرض
٩٧	• محنة الضمير السياسي
١٢١	• والرماحَ مناجل

مقدمة

أجل ساعات حياتنا ، تلك التي أنفشنا فيها سَكينة المحبين الودَّعاء ..
 وأوضاً ساعات تفكيرنا . ، تلك التي تفكر فيها تفكيراً
 موضوعياً . تتفوق فيه على الهوى والغرض .
 وخير ما نأخذ من الماضي - العبرة . .
 وأوثق ما يربطنا بالمستقبل - الرجاء ، والمثابرة .
 وهذه الصفحات ، ثمرة خواطر مُباركة . أفادت عليها المحبة . .
 وتنحّى عنها الغرض . . ، وقلقت من الماضي دَرسه . . ، وحمّلتها إلى
 المستقبل شوق حميم ، ورجاء مُثابر . .
 وكان هذا الكتاب يؤمن أن العالمَ قريشُه . . والبشريةَ
 أسرَتُه . . ولقد هداه إيمانه هذا إلى إدراك أنَّ على رأس واجبات
 الإنسان الذي أذن الله له أن يُفكّر ، ويكتب - واجباً جليلاً
 بقدر ما هو محتوم . . واجباً يدعوه إلى الاهتمام بمشا كل العالم ،
 كما لو كانت مشا كله هو . . وإلى التفكير فيها ، والتعبير عنها بنفس
 الحرارة والولاء اللذين يتناول بهما مشا كل وطنه ، وذاته . .
 وحين همت بكتابة هذه الصفحات ، لم أسأل نفسي : إن كانت
 قد فرغت من مشا كلنا نحن ، حتى تُتولى وجهها شَطْر مشا كل العالم ؟
 . لم أسألها هذا السؤال ؛ لأنها كانت قد ارتفعت ، ورفعتني معها إلى
 المستوى الذي تُدرك عنده وَحدة المشاكل . ، والذي أبصرنا فيه

— ٢ —

حقيقة الوضع الإنسانى فى هذه الأرض . ، وعرفنا المفهوم السوى
لكلمة «نحن» .

فـ «نحن» هذه ، ليست فى التحليل النهائى لها سوى سكان هذا
الكوكب جميعاً .

وأنت . ، وأنا-لأنا نبحت مشاكلنا «نحن» حين نُدير خواطرننا
على المشكلة الإنسانية بأسرها . .

* * *

إن الحرب العالمية الأولى ، لم تُعلن من بلادنا .. ولم نُعلم نحن ..
ولم يكن لنا فى أسبابها دور .. ومع هذا ؛ فقد كنا نُساق إليها كارهين ..
والحرب العالمية الثانية ، لم نُعلمها ، ولم نُستشرفها . . ومع
هذا ؛ فقد تساقطت قنابلها فوق مدتنا وقُرانا ، وسُخرت لها
مطاراتنا ، وموانينا ، ومواصلتنا ، وخيرات بلادنا .

ولقد قننا بتأميم قناة لنا ، وققع فى بلادنا . ؛ فإذا العالم كله
يشعل ، وكأن القناة تحترق كل بيت فيه . .
وهكذا ، فنحن لا نذهب بعيداً عن أنفسنا ، حين نقرب من
العالم كله ، ونعيش بوعينا بين مشاكله .

* * *

ولقد انتهيت فى هذا الكتاب إلى أن مصادر التخلف والتمزق
فى عالمنا ، هى :

- — التجارة ، التي تحولت إلى رأسمال يريد أن تكون له
الكبرياء في الأرض ..
- — الأحلاف ، التي تقوم على نُشْدان المغانم الظالمة ، وتحشد
القُوى لحروب دائمة ..
- — النظام الطبقي في الكيان الدولي ، حيث ينقسم العالم إلى
« دول كبرى ، لها كل شيء .. » و « دول صغرى » ليس لها من
الأمور شيء ..
- — انحراف الضمير السياسى عن المبادئ الإنسانية التي كان
عليه أن يحرسها - إلى المآرب الخاصة ، التي كان عليه أن يرفضها ..
ولقد استهديت بالتاريخ ... ولم أصنع ما صنعه القاضى التركى
القديم الذى حكم بالإعدام ، ثم قال : والآن نسمع الشهود ... ١١
أجل .. لم ألزم نفسى أحكاماً مُسبقة . بل ذهبت أقرأ التاريخ ،
وأستقرىء حركته ، حتى إذا انتهيت من الجولة التي رأيته كافيه -
وجدتني أخرج بالنتيجة التي حدثتكم عنها ، والتي سترونها مبسطة
على صفحات الكتاب .

* * *

ولم يكن من العسير بعد كشف هذه القُوى المشبّطة ، أن نهتدى
إلى العلاج .؛ فالآفة ماثلة في أن بعضنا يرى العالم أضيق من أن يتسع له
والآخرين .. ومن ثم فهو يريد أن يعيش وحده .، جاعلاً نهج حياته :
« هذا كله لى ، .. ١١ »

— ٤ —

وهذا سلوك ظالم ، ومستحيل أيضاً .
 فالعالم عالمنا ، ود هذا كله . . لنا كلنا . .
 ولا بد من إدراك هذه الحقيقة .
 بيد أن ترك هذا الإدراك للأريحية الخاصة عمل غير مُجد . ولا بد
 من أن تُصاغ في مبدأ ، وفي قانون .
 والمبدأ ، والقانون - كلماء . . يتلون بلون إنائه . فإذا وقفنا تحت
 وصاية دولة ، أو دُول ، عادت الأخطاء مُضاعفة .
 من أجل هذا ، ينبغي أن يحرس العالم كله هذا المبدأ ، وهذا القانون
 ولكن كيف تتم المحاولة ، وكيف تبدأ . . ؟
 تبدأ بأن يُنظّم العالم نفسه في شكل قانوني ، يُركّز انتظامه
 في النطاق الانساني العميم .
 ثم . . .
 ثم ماذا . . ؟ ؟
 معذرة ، فقد نسيت أني أكتب مقدمة . . وكدتُ أستطرد . حتى
 لكأنني أُعيد تسطير الكتاب من جديد . .
 فليكن هذا حصيناً .
 ولأترك صفحات الكتاب تروي بقية الحديث .

عالم محمد خالد

قرینہ ہذا ..

— ٧ —

في قديم الزمان ، كان رجل في اضره شبابيه ، يمتطي صهوة جواد
جسور ، يقطع الارض وثباً من الشرق إلى الغرب - يغزوها
ويفتحها .

كان اسمه - « الاسكندر » . .

وكان شعاره - « العالم امبراطوريتي » . . . !
وذات يوم ، مات كما يموت الناس . وسكنت أعلامه الخافقات .
ومضت عشرات القرون . . .

ووفد على الدنيا رجل آخر - قطع الارض وثباً ، لكن لا غازياً
ولا فاتحاً . . بل باحثاً عن المتعبين ، والمستعبدين - يحطم أغلالهم ،
ويفك أسرارهم ، ويلقي إلى أفئدتهم بكلمة السر ؛ فإذا هم أحرار
منطلقون .

كان اسمه - « توم بين » . .

وكان شعاره - « العالم قريتي » . . . !

* * *

كان « الاسكندر » يحمل سيفاً . .

وكان « بين » يحمل قلباً . .

كان « الاسكندر » سليل سادة فاتحين . .
 وكان « بين » يمثل البسطاء الكادحين . .
 كان « الاسكندر » أيام كان التاريخ طفلاً يخبو . أو مرافقاً يلهو . .
 وجاء « بين » ، والتاريخ يُشارفُ مُرشدَه .
 وعلى الرغم من أن كلاّ الشعارين - « العالم امبراطوريتي » ،
 و « العالم قريتي » - قد هتف بهما رجلين من الناس - إلا أنهما
 لم يكونا شعار الرجلين وحدهما . . بل كانا شعار عصرين ، ومرحلتين
 من التاريخ بينهما تباين كبير .
 فاتجاه التاريخ ، وروح العصر في أيام « الاسكندر » ، تمثلاً
 في نزوته تلك . . أن يكون العالم امبراطوريته .
 واتجاه التاريخ ، وروح العصر في أيام « توم بين » - تمثلاً
 في إيمانه المضيء . بأن العالم قريته .
 وروح العصر - أيام « الاسكندر » ، كان شديد الواسع بالبطل
 الفرد . عميق الاحترام لحق الفتح ، وقوة السيف . .
 وروح العصر - أيام « توم بين » كان قد قتح عينيه على بطولات
 الجماهير ، وفتح قلبه وعقله لحق الإنسان ، وكرامة الحياة . .
 وهكذا نرى « حركة التاريخ » في يوم ، تحمل السيف وتشد

القلاع . . وفي يوم آخر ، تحمل الفأس ، وتتهدد المزرعة . . !

وهي لا تصنع هذا عفواً ، ولا اعتباطاً . . بل وَفَتْقِ قَوَانِينِ
تَعْمُودُهَا وَتَهْدِيهَا ، وتمضى بها خلال تغير صاعد لا يعرف النكسة
ولا الوقوف . .

لقد جاء في عصر « العالم قريتي » ، وفي العصور التالية له ،
من أرادوا أن يرفعوا الشعار القديم « العالم امبراطوريتي » . .
فهل كان ذلك يعنى أن حركة التاريخ أخطأت ميقاتها . . ؟

كلا . . ولقد كانت صيحة « بين » ، « العالم قريتي » ، تجرأ صادقاً
لمراحل جديدة في تاريخ البشر . . مراحل ستشهد كفاح الإنسان
العظيم من أجل بعث « الأخاء الإنساني » ، بعثاً واضحاً ، أكيداً .

وليس معنى محاولة الماضي التشبُّث بأرضه وسلطانه ، أن التاريخ
يريد أن يرجع إلى الوراء .

لهذا ، سار مبدأ « العالم قريتي » ، كأنساً من طريقه كل الرواسب .
وجميع الفضائل والمخالفات ، متتصراً على المحاولات الكثيرة
المضادة له . : تلك المحاولات التي قامت قوية ، وأخذت صاغرة . . !

— ١٠ —

« العالم قريتي » - عنوان عالم جديد لإذن ، بزغ فجره من زمان .
ولقد آن لجيلنا أن يدرك هذا جيداً ؛ حتى تخلص له الحياة
وارقة . ، عادلة . ، آمنة .
وآن لكل « فرد » من البشر أن يحمل تبعاته تجاه هذا الإدراك .
لم يعد من حق أحد أن ينسحب إلى داخل نفسه ، ويقول :
« ماذا أكون في هذا العالم » . .
ولا من حق أى شعب أن يفعل ذلك .
فكل فرد ، مهما يبد متواضع الشأن .
وكل شعب ، مهما يكن محدود القدرة ، مغمر المكانة .
أقول : كل فرد ، وكل شعب ، هو العالم بأسره . .
وأى شعب مغمر قابع في أقصى مجاهل الأرض . . وأى فرد ،
لا يرى نفسه شيئاً مذكوراً - لا يدري أحد ماذا يكون غداً ،
شأنهما وشأوهما .
إننا في عصر الناس . . عصر البسطاء . . عصر الرجال العاديين .
وبين عشية ومضحاها - يقفز إلى مقدمة الصفوف شعب كان قبل
قفزته بأيام ، مستعبداً مهيضاً . . !

ويعلو الروس الشاحنة ، رجل كان قبل عُلُوّه نكرة مغمورا ،
لا تقع عليه العين في زحام الحياة . .

وكم كان هتلر ، سيقهقه ويسخر ، لو تقدم منه أحد الناس - أيام
كان يعمل - نقاشا - وقال له : أيها النقاش المسكين . اعمل لسلام العالم
ما استطعت . . ؛ فإن سلامه رهن بمشيئتك وسلوكك . .

أجل . . كانت هذه النصيحة لو حدثت ، ستثير سخرية هتلر ،
وهو يلون جدار الغرفة بفرشاته لقاء قروش معدودات . . وكانت
تستوجب الرثاء لقاءها ، وتدمغه بلوثة العقل . . !

ومع هذا ؛ فما كان شيء يمثل الحق والواقع مثلبا تمثله
هذه الكلمات .

ذلك أن هتلر «النقاش» لم يبق «نقاشا» - بل حمله تيار الحوادث
إلى ذروة الحكم في بلده «ألمانيا» . . وجاء يومه ، أمسك فيه بمصائر
العالم كله . . وكانت مشيئته وسلوكه ، هما اللذان حددا موعد الحرب ،
وساعة الدمار

وكذلك تحول الشعب الألماني الذي كان مصفداً بأغلال «فرساي»
تحول إلى دولة قاهرة ، آمرة . . وإلى «ترسانة» كبرى تروّع العالم أجمع

بما تلقيه إلى بحاره ، وأرضه ، وسماوته ، من بوارج ، ومدافع ،
وأساطيل . . .

* * *

كل « فرد » إذن ، له خطره . .
وكل « شعب » إذن ، له دوره . .
وكلنا . نحن الناس العاديين . لنا قيمتنا في هذا العالم ، ولنا دورنا
الأكيد في بقائه عالماً صالحاً ، ووطناً طيباً . .
وليس ذلك ؛ لأن أيماننا قد يمسك غداً بمصائر الأمور فحسب . .
بل ولأننا . نحن الناس العاديين . الخالقون الحقيقيون للحياة ،
الجالعون لها معنى . . ومن ثم ، فنحن المسئولون الأولون عنها ،
وعن مستقبلها . .
ونحن . الناس العاديين . نكوّن الرأي العام الذى يبلغ فى كل
الأرض أشدّه واستوى . وأضحى قادراً على فرض كلمته واحترامه .
لم يعد فى عالمنا وينبغى ألا يكون فى عالمنا مكان للويس آخر يقول :
« أنا الدولة . . والدولة أنا » . . .
ولا لحاكم من طراز « جيزو » يقول : « كل شيء للشعب . . .
ولا شيء للشعب » . . .
وكذلك ، لا مكان لإسكندر آخر يقول : « العالم امبراطوريتى » . .

لا مكان في عالمنا اليوم لغير العاملين من أجل الحق ، والخير ،
والحرية ، والعدل ، والسلام .

ولقد أذن الله سبحانه للذين كانوا يُستضعفون في الأرض
أن يرثوا مشارقها ومغاربها .

ومنذ عهد بعيد ، والتاريخ يولى وجهه شطر هذا المصير الانساني
الجليل ، ويمضي في خط متعرج ، قد ينحرف أحيانا ذات اليمين ،
أو ذات الشمال .. لكنه سرعان ما يعود إلى طريقه اللائح ، ووجهته
الصاعدة الصاعدة ..

والكيان البشري متجه صوب توحيد عالمه ، وتحويله إلى قرية
متلاثة بأضواء الحب ، والحنان ، والتقدم ، والعظمة ..

أجل .. لقد انعقد عزمه على عالم جديد . يتفوق على ضعفه ..
ويجاوز نفسه

عالم ..

الآخاء فيه طبيعة ، لا رغبة ..

والسلام فيه ضرورة ، لا صفقة ..

والحرية فيه حق ، لا منحة ..

والقوة فيه عدل ، لا سَطْو ..

والسعادة فيه شعاع ، لا امتياز ..

وصحيح أننا نشق طريقنا وسط زحمة هائلة من المصاعب ،
والتناقضات ، والأزمات . . لكننا سنبلغ المرفأ حتماً . وسنحقق كل
اجترائاتنا الباسلة الباهرة .

وإن قصة الزحف الطويل ، والجليل - الذي ساره نوعنا ، وقطعته
أجيالنا السالفة لتشير إلى الفجر ، وتكاد تحدد ساعة الانتصار النهائي
على كل العقبات والمثبطات .

* * *

مرة أخرى ، نقول : في قديم الزمان ، كان ثمة فاز شعاره .
« العالم امبراطوريتي » .

ومرة أخرى ، نقول : إن ذلك الغازي الفاتح لم يكن دخيلاً
على عالمه وعصره - بل كان الابن البكر المطيع لروح جيله ، وعصره .
كان حامل الراية ، ومنفذ المشيئة .

ولطالما شهدت دنيانا باطرة ، وقيصرة ، عَسَّبت الشعوب صلفهم ،
وشادت بحورهم - في أزمان كان العدل فيها مرادفاً للقوة . ؛ فالعادل
هو القوى . . . وكان الغزو فيها مرادفاً للحضارة . ؛ فالغازي
هو الرائد . . . 1

أزمان تطورت خلالها عادة أكل لحوم البشر تطوراً بمتأداً ،
فمن إنسان كان قبل هاتيك الأزمان ، ينضج في قدر ، ثم يوضع

تقوق السَّماط بين صحاف الطعام . . إلى ملايين من الناس تُجْزَر
في الحروب وتُسْخَر . . ثم تُتْرَك للعفن ، ولجوارح الطير .

حدث هذا . . ولا يزال قوم يحاولون له أن يحدث ، من أجل
النزوة المسعورة المنقرضة . . نزوة « العالم امبراطوريتي » . .

أجل . . فكل قيصر غابر ، أو مُعاصر - يريد أن تخفق راياته
على أوسع مساحة ممكنة من الأرض . . ويُدخل في حظائر رقيقة
أ كبر عدد ممكن من البشر . . ويُضيف إلى ثرائه أوفر قدر مستطاع
من الغنائم والأسلاب . . III

وكان العالم فيما سلف ، أكثر جهلاً ، وأكثر استسلاماً
وخوفاً . . وأهم من ذلك ، كان أكثر تباعداً ، وعزلة .

وهكذا ، كانت استجابته للشاركة بطيئة ورجسة ، وكل بلد ،
لم يقع في شباك الغازي . . لم يكن يهتم بمصير البلد الآخر الذي
وقع . . حتى يجيء دوره ذات يوم ، وتأزف آزفتته ، ويلتقفه
الغول الذي لا يشبع ؛ فيدرك حينئذ أنه أخطأ الحساب ، وأن مصيره
تقرر في نفس الساعة التي تقرر فيها مصير أول ضحية سكت عنها ،
وطن ألاء وشيجة بين مصيره ومصيرها . .

لم يكن الناس - أياً مَسَبَد - قادرين على إدراك أن « العالم قريتهم » .

كان ولاؤهم لأنفسهم - لا لعالمهم . .

وهكذا سارت على الأرض في عنفوان ، وغلظة ، وكبر .
جحافل الإسكندر ، وجيوش دارا ، وإرهاب جنكيز خان . .
وقائمة طويلة كليل الشتاء ، من الغزاة والجبارين .

حتى جاء يوم صاح فيه الناس : ها . . لقد وُلِدَ العالم الحديث . .

وكان ثمة عالم حديث يطل بوجهه الباسم . . عالم يتنسم بالاهتمام
بالإنسان ، وبحقوقه ، وبمصيره . . عالم كان ، ولا يزال يحمل
رواسب أيام خلت . . . أيام الحقوق الإلهية المستحقة للبلوك
والأمراء ، والمستبدين - لكنه على الرغم من هذا قطع ، ولا زال
يقطع طريقه وتنبأ بنحو عالم إنساني ودود . . نافضاً عن كاهله الكثير
جداً من أوزار القرون الماضية ، وضلالها .

وعالمنا الحديث مُسلّح بقيم ذكية ، تتخذ من كل مواطن
الضعيف مزية ونفعاً . .

مثال ذلك ، حروب نابليون . . إنها على قسوتها وبربريتها ،
طوّحت بمبادئ الثورة الفرنسية وأذاعتها . . وأزالَت كثيراً من
التخوم والحدود ، وهيأت الأرض لوحدة محتومة . .

ألمانيا . . مثلاً . . قبيل غزو بوناپرت كانت تتكون من

« ثلثائة ، دويلة متفرقة ، متباغضة - فوحدت يومئذ في « تسع وثلاثين ، حيث كان ذلك تمهيداً لاتحادها الكامل فيما بعد على يد « بشارك » . .

و « إيطاليا ، أيضاً ، كانت عند غزو « نابليون » اثنتي عشرة ولاية - فوحدت في ثلاث فقط ، حيث تم توحيدها فيما بعد على أيدي « ماتزيني ، وكافور ، وغاريبالدي . .

هكذا اتخذ روح عالمنا الحديث من عدوان نابليون مزية ، ونفذ من خلال أطماعه إلى تحقيق إرادة التجمع ، والوحدة .

وفي الوقت الذي كان هناك آل « بوربون ، وأسرة « هابسبورج ، ، وعائلة « هانوفر ، ، وآل « رومانوف ، ، وآل « عثمان ، - يملكون ويحكمون ويسودون . . كان هناك كذلك ، « توم بين ، وماركس ، وإنجلز ، وروبرت أوين ، وسان سيمون ، وفولثير ، وروسو ، وتولستوى ، ومونتسكيو - يقودون القلب البشري ، والفكر الإنساني إلى العمل القوي من أجل تحرر شامل عميم . .

وعلى أصوات هؤلاء الأفذاذ ، أخذ الوجدان البشري يصحو ، ويفيق .

والثورات التي كانت تقوم على أساس عنصري ، صارت

تقوم على أساس عميم من حقوق الإنسان وتتجه اتجاهاً أكثر عالمية وشمولاً . .

فمثلاً - حين ثور في وجه النمسا أمم تستعبدتها النمسا ، ويلعب بمقدراتها طاغية أوروبا « مترنيخ » - نرى شعب النمسا نفسه يعمل بقيادة المثقفين فيه - على إسقاط « مترنيخ » ، وفتح باب الحرية للشعوب التي تستعبدتها النمسا . . وهكذا تلاشى الحس العنصرى القومى - أمام الحس الإنسانى العظيم .

وكذلك عند ما تداعت أبحاد الإمبراطورية العثمانية فوق رموس حلفاتها الخلفاء . . ونهضت ولايات البلقان « المسيحية » هاتفة بحريتها واستقلالها . . نرى الشعوب العربية « المسلبة » ثور في نفس الوقت على تركيا - غير متعصبة « دينياً » لوطن الخلافة الإسلامية . . بل ساعية هي الأخرى وراء حريتها واستقلالها . . هادرة مع الموكب الذى لا يعرف غير الحرية وجهة وغاية .

هكذا اكتشف عالمنا الحديث نفسه ، وأدرك مصيره .

* * *

وجاء العلم ناشراً قلوبه وشرعه . . جاء فصيحاً نظرتنا إلى الكون ، وإلى الحياة . وإلى أنفسنا وعلاقاتنا . ؛ فإذا نحن على إثر هذا تبتدأنا ، ونقترب . وإذا الجغرافيا الإنسانية تتقلب انقلاباً هائلاً .

لم يكن العلم يعنى مجرد المعرفة النظرية . . بل كان يعنى كل ما تنطوى
إليه هذه المعرفة من حركة ، وكشف ، واختراع . .
يعنى الأساليب الجديدة فى الصناعة ، والزراعة ، والتجارة . .

إن تطورات فترة ، قد حدثت فى هذه القطاعات جميعا . ومع
هذه التطورات ، قامت أزمات وتناقضات من نوع جديد .. وشدة زناد
« الرئج » ، إلى أقصاه ، فمضى يعالج تضخمه واختناقه بالاستعمار . . يبتد
أن إدارة الآخاء والتجمع ، كانت تتسلسل ، وتعمل ، وتدفع المعوقات ،
وتتلاقى أعداءها فى مواقف فاصلة . .

وكانت « حركة التاريخ » ، وهى تمخر هذا العُباب ، لا تفتأ تلقى
فى روع الناس أن عالمهم هذا واحد . . وأن أية كارثة تصيب أقصى
شماله ، سيصيب وبأها أقصى جنوبه .

وثمة سؤال كان يمكن أن يوجهه لسكان العالم فى بداية عام
١٩١٤ - ولا يجد من يجيب عنه سوى أفراد معدودين .. ويمكن أن
يوجهه اليوم لسكان الأرض جميعاً دون أن يجد من يعرفون الجواب
سوى نفر قليل جداً قليل . .

فأشنا يعرف شخصاً اسمه « جافريلو برنسيب » . . وشخصاً آخر
اسمه « فرديناند » . . ومدينة اسمها « ساراجيفو » . . ؟ ؟ ؟

إن مئات الملايين منا لا يعرفون عن هذه الأسماء شيئاً .
ومع هذا ؛ فإن مئات الملايين من الناس ، سبقت من حيث

لا تشعر ولا تريد ، إلى حرب عالمية ما حقه بسبب هذه الأسماء
الثلاثة . . . ! ! !

نعم . ؛ فإن طالبا صريا هو « جافريلو برنسيب » أطلق رصاص
مسدسه على وارث عرش النمسا ، واسمه « فرديناند » في مدينة اسمها
« ساراجيفو » ؛ فإذا هذه الرصاصات تصبح السبب المباشر ، وإن
لم تكن السبب الاوحد ، في قيام الحرب العالمية الأولى التي التهمت
حصار الحضارة . . وسيقت المجموع البشرية من كل مكان لتكون لها
علقا ، وقربانا . . !

ألم يكن ذلك درسا من التاريخ - أى درس - ليعلم الناس أن العالم
قرية . . ؟ وأن عود ثقب واحد يُمسك بأعواد من الحطب
في مكان ما من هذه القرية ، قادر على حرقها جميعا . . ؟

قد نقسم : أى عدالة في أن يدفع سكان الكرة الأرضية ثمن
رصاصه غادرة أطلقها « تليد » في مكان قصي بعيد . . ! ؟

لكن العدالة أن يحدث هذا . . والعدل التاريخي هو الذي فرض
على الناس كلهم هذا القداء - لافداء وارث عرش النمسا - ؛ بل قداء
الحقيقة التي رفض الناس أن يبصروها ، ويأخذوا بها . . حقيقة أنهم
عائلة واحدة ، في قرية واحدة . .

حقيقة أنهم ركّنب سفينة واحدة . إذا تمزق أحد راكبيها

يلهو بمثقب في قاع السفينة ، فقد استحق الآخرون الغرق والهلكة والضياح .

ولقد كان العالم كله مسؤولاً عن الأسباب التي تراكت وتجمعت بين يدي الحرب العالمية الأولى . . وواجب عليه أن يعرف هذا ، فإذا جهل ولم يعرف ، فلن يشفع جهله . .

إن الجبل بأن السم يقتل ، لا يفيد شيئاً في إلقاء حياة من يتناول السم جاهلاً عقباه . .

وكذلك جهل البشر بأن تمزق عالمهم مهلكة لهم ، لا يفيدهم شيئاً . وهذا هو الدرس الذي يهيب بنا أن نأخذ به .

في عام (١٩٣٠) قامت في دولة ما أو دولتين أزمة مالية بسبب آثار الحرب ، وبسبب اضطراب نظمهما الاقتصادية . . فهل ظلت الأزمة محصورة داخل حدود هاتين الدولتين . . ؟

كلا ، ولقد طارت كاللهب حتى غطت وجه الأرض ، واجتاحت كل الدول ، ودهى العالم كله ليحمل - كارهاً - وزر تلك الأزمة الطاحنة .

وذاذ يوم قام في ألمانيا مستبد أهوج اسمه « هتلر » ، وقام في إيطاليا درتشي مغرور اسمه « موسوليني » .

— ٤٢ —

سيّر الأول « فرق العاصفة » ، تدق الأرض بأحذيتها المختالة
الثقيلة . .

ووقف الثاني يخطب فوق فوهة مدفع صارخاً « الويل للأمم
غير المسلحة ، . .

فهل عادت شرور الطاغيتين على بلديهما وحدهما . . ؟

كلا . . . وحينما سكّت العالم عن غرورها ، بل صفّق أحياناً
إعجاباً بهما . . طالبت العدالة التاريخية بالثمن ، وألومته القصاص ،
وهكذا أصبح ذات يوم ، فإذا هو وجبة شهية ، وولاية دسمة لحرب
عالمية ثانية . .

* * *

« العالم قريتنا ، ليست مجرد شعارجيسل . . إنها الحقيقة . .
وسيمظل العالم يدفع ثمن كل خطأ ، يرتكبه في أى مكان مجهول ،
أى فرد مجهول . . ذلك لأن العالم قرية . . العالم وحدة . . العالم كيان
واحد كالجسد الواحد :

ولقد تشابكت المشاكل العالمية ، حتى صارت ظروف نشوئها ،
وأسباب علاجها - عالمية - لا إقليمية . .

وإن العالم اليوم لينادى إلى وحدته ، كما لم يناد من قبل ..

لقد رأينا حين قامت مصر بتأميم قناتها ، كيف وقف العالم كله
ممسكا أنفاسه . . وكأنا القناه المصرية ، تخرق كل شارع فى الدنيا .
بل كل بيت من بيوتها . . !

إن الناس - جميع الناس - مدعون اليوم أفراداً ، وشعوباً ،
وحكومات - كي يكتفوا سلوكهم وتفكيرهم وفنق هذا الإدراك .

عليهم ألا يفكروا لأنفسهم وحدها . . ولا يفكروا بعقولهم
وحدها . . بل يفكروا للعالم جميعه ، وب عقل العالم جميعه .

هذه هى الضرورة الإنسانية والتاريخية التى كشفناها بعد طول
عناء . والتى لا تقل وثاقة وحتمية عن أى قانون كونى . . ولا سبيل
بعد الآن إلى تجاهلها ، ولا سبيل إلى الفرار من تبعاتها . . فبدلاً
من أن نكتوى بعاقبة الإفراط والتفريط ، علينا أن نكشف القوى
التى ترفعنا إلى مستوى الحياة فى عالم واحد لا أنانية فيه ولا حرب ،
ولا استغلال ولا كراهية .

وهذا يقتضى أن نتعقب ونواجه كل عوامل الفرقه .
والتحزق ، والصنياع .

وليس هناك دليل أمين. يدلنا على تلك العوامل ويفضحها
سوى التاريخ ، فلتنص معه ، حتى نمسك بها غير متسكرة ،
ولا خادعة . . .

— ٢٤ —

التاريخ سجل يطوى كل واقعنا الإنسانى ، ويصون وثائق
نطورنا . . فلنسأله : لماذا نختلف ونتحارب . . ؟

من أى مادة صنعت المناجل التى حصدت الملايين البريئة من
صفوف البشر . . من الطمع . . من البغض . . من الجمل . . ؟
من الفطرسه والكبر . . من خلل النظم ، وفساد الأوضاع . . ؟

من بعض هذه ، أم من كل هذه ، صُنعت مناجل الموت
والقناء . . ؟

لنسأل التاريخ فى حُقبه القريية ، ولنحاول أن نكشف
فى ضياء أنبائه ، تلك القسوى الشريرة التى عملت ، ولا تزال تريد
أن تعمل على تقويض البناء البشرى ، وتشتيت الصفِّ الإنسانى .

من المحرّوب الصليبيّة
إلى الحرب العالميّة الثانيّة

« يا شعب الله المحبوب المختار »
 « لقد جاءت من فلسطين ، ومن القسطنطينية أنباء »
 « محزنة ، تعلن أن جنسنا أحيثا أبعد ما يكون عن الله »
 « قد طفي وبقي في تلك البلاد ، بلاد المسيحيين . »
 « يقتلون إخوانكم ويأسرونهم ويهدمون المذابح »
 « في الكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم ! ! ! »
 « فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس - ربنا ومقعدنا - »
 « الضريح الذي تملكه الآن الأبمى النجسة »
 « إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم »
 « أن هبوا لأنقاذها ، »
 « فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تخلصوا من »
 « ذوبكم . . . ونقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك »
 « مجدأ لا يفنى في ملكوت السموات »
 « لا تدعوا شيئاً من أموالكم ولا من شئون أسركم »
 « يقعد بكم عن القتال . . ؛ فالأرض التي تسكنونها »
 « الآن ، والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار ،
 « وفن الجبال - أرض ضيقة لا تتسع لسكانها »
 « الكثيرين . وتكاد تعجز عن منحهم ما يكفيهم »
 « من الطعام ، »

« ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً ، ويلتهم بعضكم بعضاً ،
« بعضاً ، وتتحاربون ، ويهلك الكثيرون منكم ،
« في حروب داخلية
« إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها فائزعوها ،
« من ذلك الجنس الحديث وتملكوها أنتم »

* * *

هذا هو النداء الذى وجهه البابا « أربان الثانى » إلى شعوب أوروبا ،
داعياً إياها إلى الحروب الصليبية . وهذا النداء هو الطلقة الأولى في
تلك الحروب .

ونحن الآن في أوروبا . . في القرن الحادى عشر حيث تسكون
« أوروبا ، وتصنع نفسها . . وحيث تتكشف رويداً رويداً جميع
التيمم التى ستحدد لها اتجاهها الفكرى والسياسى والاقتصادى . ،
وحيث تبرز إلى المقدمة العوامل التى ستؤثر في حركة التاريخ ، وتدفعها .

ولقد تسأل : ما شأن أوروبا بموضوعنا هذا . . ؟

ألا فلنعلم أن قصة « أوروبا ، هى قصة المرحلة المائلة من مراحل
التطور البشرى ، والتحول العالمى . . ولا سبيل لمعالجة قضية السلام
العالمى . . والأخاء الإنسانى بعيداً عن أوروبا ، وعن الأحداث
التي صنعت أوروبا ، وصنعتها أوروبا . .

• فالقارة الأوروبية - هي الوارث الأكبر للتراث الإنسانى جميعه .
اليونانى . . والمسيحى . . والإسلامى . .

كما أنها اليوم ، الراحل الذى يرثه عصرنا وأجيالنا .

• والقارة الأوروبية - هي الوعاء الذى تشكلت داخله هذه الثورة
الصناعية الكبرى التى دفعت العالم وأشاعت فى حركته الداهية كثيراً
من التناقضات ، وملأت الحياة الإنسانية بفلسفات ومذاهب ،
وعوامل شتى من الفكر ومن المحاولة - هي التى تحدد اليوم للتاريخ
وجهته وطريقه .

• والقارة الأوروبية - هي الجسر الذى تعبره اليوم حضارتنا
الإنسانية . مولية وجهها منطـر تطور أمثل ، وغداً أفضل . .

والقوى التى تبث فى الحياة الإنسانية كثيراً من الخير ، وتصيبها
بكثير من الشر والضرر . . تعرضت فى أوروبا وازدهرت - مما يجعل
دراستها فى وطنها هذا أمراً محتوماً .

وأوروبا كقوة سياسية ذات تأثير عالمى تبدأ - فى تقديرنا -
من الحروب الصليبية . . تلك الحروب التى حملت إلى أوروبا ثقافة
كانت تنقصها . . وفتحت عينيها على ثروات كانت تريدها ، وعلى دور
تاريخى كانت تنهيا له .

— ٣٠ —

هذا الدور الذى يبدأ باليوم الذى سارت فيه طلائع تلك
الحروب التى ظلمت تعاود الظهور والالتحام مدى مائتى عام ، بل
أكثر من مائتى عام ، والتى سميت بالحروب الصليبية . . .

* * *

ونعود إلى البابا « إربان الثانى » يتنقل بين شعوب القارة ،
مذيعاً فيها نداءه السالف .

« يا شعب الله المحبوب المختار . . . »
لقد أخذ « إربان » على كاهله أن يصنع من شعوب أوروبا قذيفة
يرمى بها ما أسماه « الشعوب النجسة » .

. وكان من الطبيعى أن يلجأ للحمية الدينية يثيرها ، ويستجيشها ،
فذهب يحدث الناس هناك عن إخوانهم الذين يقتلون فى فلسطين ،
وعن الضريح المقدس الذى يلقى المسلمون فيه رجسهم ونجسهم .

والتاريخ يشهد . كيف كان المسيحيون فى فلسطين ينعمون بالحرية
والأمن بين إخوانهم العرب والمسلمين . .

وحين قام حاكم مجنون أصاب المسلمين من شره أكثر مما أصاب
المسيحيين - وهو الحاكم بأمر الله . .

نقول : حين قام هذا الحاكم فى نوبة من نوبات جنونه بهبهم

«كنيسة الضريح ، نهض المسلمون في كل الأقطار ، وجمعوا مالا جمعا ،
وأعادوا البناء المهتمد أروع وأبدع مما كان .

فلماذا وقف البابا « إربان » موقفه ذاك . . ؟

وما حقيقة الدوافع لحرب لبثت فوراتها أكثر من مائتي عام ١٢٠٠

هنا تتلقى « أوروبا ، أول وأخطر درس في حياتها السياسية . .
ويتلقاه العالم كله منها .

* * *

● بدأت الحروب الصليبية بطليعة لم تصبر من فرط حماسها . .
ولم تنتظر الموعد الذي حدده « البابا » لبدء الزحف ، فسارعت
إلى الخروج في مارس عام ١٠٩٦ بقيادة « بطرس الناسك » ،

ولم تسكد هذه الطليعة التي كان ينتظر منها الورع والتقوى . .
لم تسكد تقطع من الطريق بضغ فراسخ حتى دهمها اليأس والجزع .
فصنت تسرق وتنهب وتهتك الأعراض في بلاد المسيحيين أنفسهم -
مما جعل « بطرس الناسك » يعزلهم ، مشمزا ساخطا .

● بعد هذه الطليعة ، تحركت الحملة الأولى يقودها أمراء أوروبا . .
ولا يكادون يبلغون منتصف الطريق حتى يصير بأسهم بينهم شديدا . .
ويذهب كل منهم إلى سبيل . يفتح لنفسه فتوحا خاصة . .

ويُشَسِّمُ د الكسيوس ، امبراطور د بيزنطة ، أنهم يريدون
د القسطنطينية ، المسيحية ، أكثر مما يريدون د أورشليم ، وذلك
لما في القسطنطينية من كنوز وأموال ، فيتق شرهم بالرشوة ..
ويشترى ولاءهم الذي سرعان ما خانوه - بالأموال والهدايا ..
وبعد ثلاث سنوات من زحفهم يبلغون د أورشليم ، ويفتجونها .

● وتقوم الحملة الثانية بقيادة د لويس السابع ، و د كزاد الثاني ،
امبراطور ألمانيا ، قدسوم بعض بلاد أوربا المسيحية الخسف
والعذاب . وعند مشارف القدس تنزل بها هزيمة ماحقة .

● وتتلوها الحملة الثالثة . يقودها د قلب الأسد ، وتنتهى بالصلح ..
● ومن بعدها تأتي الحملة الرابعة .. فالخامسة .. فالسادسة ..
● ويحییء مسك الختام بالحملة السابعة يقودها د لويس التاسع ،
ملك فرنسا وأسير دار ابن لقمان . . . !

* * *

عبر هذه الحروب التي دامت أكثر من مائتي عام تخبو قارة ،
وتتسعّر نارة أخرى .. تكشف الوجه الحق لإحدى القوى
الخرابة التي تعمل لتقويض المصالح العالمية ، والأخاء الإنساني ..
وتبين تماماً أن الدين قد استُغلَّ استغلالاً رديئاً لإنجاح غزو كانت
كل بواعثه اقتصادية عدوانية .. وعرف الناس أخيراً - أن الصليب

لم يكن يقود الناس إلى معارك مقدسة كما أُلنى في روعهم . . بل إن التجارة هي التي قادت الصليب في خداع ومكر إلى معارك الريح والأثراء . . وإلى مآرب أخرى . .

ولسنا ندرى : هل كان « إربان » يعي هذه الحقيقة حين دعا أوروبا إلى الحرب ، وحين قال لها في ندائه السالف .

« إن الأرض التي تسكنونها تضيق بكم ،
« ونعجز عن إمدادكم بكفايتكم من الطعام ،
« فاخرجوا إلى أورشليم ، فأنها أرض ،
« لا نظير لها في خيراتها »

أقول : لا ندرى هل كان البابا « إربان » يعي حقيقة الدوافع لتلك الحروب . أم أن أساطين التجارة والمال ، قد أحسنوا استغلاله .

ومهما يكن من أمر ؛ فإن إغراءه الناس وحضهم على الحرب بسبب من المعيشة والرزق ، يدل على أن الدين وحده لم يكن كافياً لأضرار تلك النار .

والآن ، لننظر كيف أن التجارة وحدها كانت وراء تلك الحروب التي كادت تعصف إلى الأبد بكل روابط الأخاء والقربى بين الديارتين الكبيرتين - الإسلام والمسيحية . . ؟

إن المدن الإيطالية الأربع - البندقية ، وجنوى ، وبيزا ، وأملنى - كانت تقوم بتصدير المحاصيل الإيطالية ، ومحاصيل البلاد الواقعة وراء جبال الألب . .

هذه المدن ، اتسع نشاطها ، وتسمت تجارتها عندما انتزعت صقلية وجزء كبير من أسبانيا من أيدي المسلمين . تخلص غرب البحر الأبيض المتوسط لها . . وأشرأت أطباعها بعد هذا إلى شرق البحر الأبيض الذى كان لا يزال فى قبضة المسلمين . . وهنا وضعت تلك المدن خططها للسيطرة على شرق الأبيض المتوسط تمهيداً للسيطرة بعدئذ على أسواق الشرق الأدنى .

هذا هو السبب الذى أشعل الحروب الصليبية وفضحه سلوك الحرب نفسها .

● فى الحملة الثانية ، نجح « بلدوين » الذى ورث انتصارات أخيه ، ينصب نفسه ملكاً على « أورشليم » بمساعدة المدن الإيطالية فظير أن يسلمها يافا ، وصور ، وعكا ، وبيروت ، وعسقلان . . أى يسلمها جميع المرافئ والشعور التى تريدها لتجارتها .

● وعندما دعا القديس « برنار » الحملة الثانية ، يتعاس عنها « كزاد » امبراطور ألمانيا . . فتتقدم البندقية ، وجنوى ، وبيزا . . وتفدى الفتنة الداخلية التى كانت قائمة يومئذ فى ألمانيا . . ثم توعز إليه

بأن خير سبيل للقضاء على هذه الفتنة أن يشغل شعبه بالحرب خارج بلاده .

وهكذا تزعم « كنزاد » الحملة الثانية . . .

• وبعد موت « صلاح الدين » يدعو البابا « أنوسنت الثالث » إلى الحملة الرابعة ، ويرسم بنفسه خطة الحرب ، وتقضى بأن توجه الحملة أولاً إلى مصر فتستولى عليها . . ثم تثب منها على بيت المقدس .

وتؤيد « بيزا » و « جنوى » هذه الخطة . . ولكن البندقية . . تحاول دحضها .

لماذا . . . ؟

إن « البندقية » آتت . كانت تربح من مصر أموالاً طائلة . إذ تصدر إليها الأخشاب ، والحديد ، والأسلحة ، وتستورد عن طريقها الرقيق .

وانتصار الهجوم المقترح عليها - يجعل من بيزا وجنوى شريكتين لها بعد النصر في تلك الأرباح التي تحتكرها .

من أجل هذا ، عارضت الحملة . . ولما أكرهها البابا على القبول تظاهرت به ، وأسهمت في تحويل الحملة وإمدادها بالخيول والسلاح ، لكنها في نفس الوقت ، أبرمت مع مصر اتفاقاً سرياً - ضمنت لها فيه تعوين الغزو وإحباطه . . .

• ونحن نعلم أن الامبراطورية البيزنطية ، كانت مسيحية ، بل كانت معقل المسيحية . . ومع هذا ، لم تكف تلغى الامتيازات التجارية التي كانت تتمتع بها مدينة البندقية . . حتى تلقت من الجيوش الصليبية نفسها ضربة قاتلة .

لقد جهزت « البندقية » جيشاً قوامه عشرة آلاف جندي ، وسيرته إلى القسطنطينية . . . ١

وثار البابا ، وأنذر بحرمان كل من يشترك في هذا الجيش . . ولكن رنين المال ، أصم الآذان عن نداءاته المقدسة .

وفورا ، تحركت إلى القسطنطينية « المسيحية » أربعمائة وثمانون سفينة . . ودخلها الجيش الصليبي ظافراً فاتحاً . وعاث فيها تخريباً ، وفساداً ، وعريضة .

يقول « ديورانت » في كتابه « قصة الحضارة » :

« . . . وعانت كنيسة أيا صوفيا يومها ،

« على أيدي المسيحيين أنفسهم ما لم تعان مثله ،

« على أيدي الأتراك فيما بعد عام ١٤٥٣ . . . »

* * *

وبعد . . أليست هذه الشواهد التي سقناها كافية للدلالة على أن الحروب الصليبية ، لم تكن صليبية . . ؟؟

بلى . . ولقد كانت حروب التجارة ، والريخ ، ورأس المال . .
ولا شيء سواها .

وثمة مشاهد آخر ، لابد من تدبر مغزاها .

فالحرب الصليبية لم تتخذ المسلمين وأرضهم هدفها الاوحد . . بل
صببت عذابها صبا على يهود أوروبا .

فالحملة الصليبية الاولى - قرر زعمائها قبل السير إلى اورشليم
أن يمحزوا على اليهود بقتلهم وحرقتهم .

وبالفعل ، زحفت الجيوش محاذية نهر الرين ، فأبادت اليهود
إبادة شاملة .

وقد تسأل : ولماذا اختار الصليبيون هذه الجهة بالذات ؟ . .
والجواب يكشف لك عن سر الخزوب الصليبية كلها ففي محاذاة
نهر الرين كانت تقع مراكز التجارة والأعمال اليهودية .

ولما كان المحركون للحرب الصليبية هم أساطين التجارة
والمال في البندقية ، وجنوى ، فإن خطتهم تعتمد على التخلص من كل
منافس قوى . . واليهود في أوروبا - هم ذلك المنافس . . ولئن فلتجهز
عليهم جيوش الصليب . . !

وهكذا بدأت الحملة الاولى عملها - وفي مذبحه « وورمز » وحدها
(٣) .

قتلوا ثمانمائة يهودى . وأشعلوا النار فى حى التجارة والمال .

وفى الحملة الثانية - بدأت الجيوش رحلتها بهجوم مبيد على يهود أوروبا . . ووقف القديس « برنارد » ، وكان معبود المسيحيين جميعاً . . وقف ينهى عن قتال اليهود . . لكن قوة المال كانت أنفذ من صوته الوديع .

وفى مذبحه أخرى تدعى « يوردو » ، وانجوليم ، بفرنسا ، طرح الصليبيون ثلاثة آلاف يهودى على الأرض مصفدين . . ثم جرى بالخييل يعلو ظهورها الفرسان . . واتخذت من جثث هؤلاء أرضاً تظوها الخيل وتجري فوقها فى سباق عنيف حتى هلكوا جميعاً ووقف البابا « جريجورى التاسع » ، يذبح : ويلعن الصليبيين على وحشيتهم . . ولكن البابا الحقيقى للحروب الصليبية - كان رأس المال الذى أراد هذا فكان له ما أراد . . !

وفى ختام تلك الحروب توجس التجارة خيفة من فلول الجيوش الصليبية ؛ فتغرى بهم الكنائس والحكومات .

وهكذا رأينا « فرسان المعبد » الذين كانوا من أشد المقاتلين حماساً واندفاعاً - يتعرضون لنقمة الكنيسة والحكومات فى كل بلاد أوروبا .

ورأينا صكوك الغفران التى كانت تمنح لمن يقاتل المسلمين ، صارت تمنح لمن يقاتل « فردريك الثانى » وجيوشه المسيحية . . !

انتعشت قوى المال والتجارة بهذه الحروب انتعاشاً لم تظفر به
« روما » نفسها في حياتها وبذخها . . وغمرت أوروبا بخيرات لا عهد
لها بها من قبل . . قطعتم الذرة ، والأرز ، والسهم ، والبطيخ ،
والشمش ، والتمر ، والليمون ، واشتد هيامها بالتوابل . . ولبست
الدمقس ، والساتان ، والمخمل والأقشه المزركشة . . واستعملت
الطنافس ، والأصباغ ، والعطور . . وازدانت بالجواهر
والياقوت .

وتلقت « أوروبا » الدرس كاملاً من هذه الحروب وكان يتلخص
في هذه العبارة .

« الحرب تنعش التجارة »

* * *

بعد هذا لم يصبح الشرق مأرب التجار وحدهم . . بل سارعت
الحكومات ، وسارع الملوك إلى الفتح حتى إن معظم الرحلات التي
قامت لكشف مجاهل الأرض ، كانت في الحقيقة رحلات في طلب
الثروات بل وفي طلب الأفاويه بالذات .

لقد فُتنت « أوروبا » بالأفاويه فُتُوناً شديداً . حتى إن الزنجيبيل
والقرقة . كانا يباعان بميزان الصيادلة والصاغة . . وكان الفلفل الأسود
يباع بالحبة . . وثمن الحبة الواحدة ، زنتها فضة

يقول « زفايج » في كتابه « فاتح البحار » ..

« لقد كانت الجرأة التي أوحى برحلات كولمب ،
« ودياز ، وجون كابوت ، وغيرهم من عظماء الرواد ،
« في عصرهم - ثمرة الرغبة في الاهتمام إلى طريق تجارة ،
« جديدة مأمونة إلى جزر « البهار » الشرقية ، . . ١١

* * *

غذت الحروب الصليبية كل قطاعات التجارة في أوروبا . .
وأفاضت على النشاط المالى حيوية جارفة .

وفي نفس الوقت ، رأت أوروبا ذلك الرخاء ، وذلك التقدم ، ثمرة
من ثمرات الحروب الصليبية . . واعتنقت الفكرة القائلة « الحرب
تنعش التجارة » . .

وهكذا ستمضى أوروبا حياتها . . تعالج أزماتها بالحروب . وتنمى
ثرواتها بالحروب . . ١١

ولسوف تنهض المصارف والشركات . . وسوف تبلغ من الضراوة
حدوداً فوق طاقة الجماهير المستغلة المستنزفة . . وسوف تذهب تلك
الجماهير لحماية مصالحها في ثورات تملأ أوروبا . . متخذة نهجاً من نخوى
ذلك الشعار « كل ثروة سرقة . . وكل ثرى سارق » . . وسوف يتحدث

اتتفاضاتها هذه رد فعل آخر لدى أرباب المال والمصالح الكبرى فيزداد
ضعفهم وتكالبهم . .

وبعبارة واحدة ، ستماني أوروبا حياتها . . ولكنها لن تتخلي عن
هذه الحكمة « الحرب تنعش التجارة » . . وهكذا نلتقي بحرب أخرى
لها في التاريخ شهرة قريبة من شهرة الحروب الصليبية . . تلك هي
« حرب المائة عام » .

لقد استغرقت أعمال تلك الحرب مائة عام كاملة من بين بريطانيا
. وفرنسا .

والعجيب أن سببها هي الأخرى ، كان التجارة . .

بل إن تاجراً واحداً - لكنه واسع الثراء والنفوذ - هو الذي
أجج تلك الحرب .

أجل . . في عام - ١٣٣٦ - منعت إنجلترا تصدير الأصواف إلى
« الفلاندرز » التابعة لفرنسا . . كما امتنعت عن استيراد الأقمشة
الفلمنكية منها .

وكان عميد هذه التجارة في « الفلاندرز » رجلاً اسمه « يعقوب
فان ارتفلد » . .

ورأى يعقوب هذا أن تجارتها ستبور ؛ فأبرم مع « ادوارد الثالث »

— ٤٢ —

ملك انجلترا اتفاقاً سرياً يسمح لانجلترا احتلال « الفلاندرز » وتستأنف
بعد هذا كل علاقاتها التجارية معها وبدأ تنفيذ الاتفاق بين التجارة
والسياسة . . بل بين التاجر والملك . . وبمجرد البدء في تنفيذه بدأت
حرب « المائة عام » ١١١٠

* * *

وفي أواخر القرن الثامن عشر . تتولى حكومة الإدارة حكم فرنسا ،
وفرنسا مفلسة خاوية . . ولا يكاد بونا بارت يفتح لها « بلجيكا »
وتذوق طعم خيرات هذا الفتح من ثخم وحديد ومصانع . . حتى تدفع
نابليون ، ويدفع هو نفسه إلى فتوح تلو فتوح .

* * *

وتجلبو « بريطانيا » مكرهة عن الولايات الأمريكية بعد انكسارها
في حرب الاستقلال . . ولكنها بعد أعوام طويلة من جلائها ، تعود
لغزوها من جديد ، أو تحاول غزوها من جديد حين تراها تتاجر
مع فرنسا - الأمر الذي يعرض التجارة البريطانية للخسارة
والبوار . . ا

* * *

وفي الشرق الأقصى ، تقود التجارة وأطماع المال أكثر حروب.

التاريخ خزيًا وظلمًا . . تلك هي « حرب الأفيون » .

ذلك أنه في عام - ١٧٩٦ - تسن حكومة الصين تشريعاً ينقذ رعاياها من الأفيون ، ويحرم على الناس تعاطيه والاتجار به .

وكان « الأفيون » تجارة رابحة تصدرها أوروبا وبريطانيا بالذات إلى الصين . .

وهكذا صادرت حكومة الصين عام - ١٨٣٩ - عشرين ألف صندوق من الأفيون ، مهربة من بريطانيا . . وعندئذ تحرك التجارة البريطانية - الدولة والجيش فتزحف أساطيل بريطانيا العظمى - ولا تنسوا كلمة العظمى هذه - تزحف إلى الصين فتضربها وتحتل جزيرة « هونج كونج » التي لا تزال تحتلها حتى اليوم . . وتنتعش الشركات البريطانية يومئذ ببركات حرب الأفيون . .

ولم تكن تجارة الأفيون وحدها - الدافع لحرب الأفيون . . فإن التجارة يومئذ كانت قد تطورت . فصارت لا تعنى تصدير السلع فحسب . . بل وتصدير رؤس الأموال لتوظيفها في نشاط تجارى .

* * *

وتبصر فرنسا نجاح حرب الأفيون ، فيسبل لئعابها . . وتضغط الشركات الفرنسية على الحكومة والجيش . . فتدشن هي الأخرى غزوا

لبلاد الصين . . مفسحة للتجارة الفرنسية مكاناً خصباً .

وبعد فرنسا تتمدد روسيا القيصرية مدلية هي الأخرى .
دلوها . . .

* * *

وتضج أليابان من سوء استغلال أمريكا وبريطانيا لموانئها
التجارية . . وتهم باتخاذ الإجراءات التي تنمذ أقتصادها من الصادرات
المتدققة عليها كالسيل . . والعملية الأجنبية الهابطة عليها كالدمار .
فتتحرك أساطيل مشتركة من أمريكا ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وهولاندا . . .
فتغزوها . وتدعم هناك مصالحها التجارية .

* * *

ولقد فتحت الهند بشركة بريطانية . . .
وفتحت مصر بأموال روتشيلد . . .

بل إنه في عام « ١٨٥٠ » سئيرت بريطانيا أسطولها الكبير .
الوقور الأنغم لمحاصرة اليونان من أجل ديون أحد المرايين
الإنجليز . . .

إن كل فتوح أوربا وغزواتها - كانت فتوح التجارة ، وغزوات
رأس المال .

وكلما ازدهرت التجارة . ازدادت حاجتها إلى الحرب . فالازدهار التجاري ، يسبب ازدهاراً صناعياً . ويزيد الإنتاج زيادة مبهضة . تتطلب المزيد من الأسواق ، والمزيد من الخامات . . والأسواق والخامات . لانباع عند العطار (١) والظفر بها يتطلب الاستعمار ، والاستعمار وسيلة الحرب ، والقوة ، والسطو .

وهكذا ازدحم القرن التاسع عشر بالحروب التي قادتها أطماع التجارة والربح .

فإذا أهل القرن العشرون ، وجاءت الحرب العالمية الأولى ، أبصرنا بين يديها الأسباب التي هيأت نشوبها . وعلى رأس تلك الأسباب منافسات التصدير ، والأسواق ، والمواد الخام .

إن تراكم الإنتاج أنجب الأزمات ، وأفرز الكساد . . وفي ضباب الكساد والأزمة ، تتلاشى التجارة الصغيرة ، وتقع بين فكي التجاره الكبيرة . وتربع على العرش ، شركات الإحتكار . وينفصح المجال للملوك المال ، وأقطاب الربح . وبين هؤلاء تقوم منافسة أخرى ، لكنها عارمة القوى ، حادة الأناب . خطيرة النتائج . لأنها لا تتحرك وحدها . بل تحرك معها الحكومات والجيوش وهنا تقوم الحروب . . وهنا قامت الحرب العالمية الأولى . . حين اصطدمت مصالح الشركات والاقتصاد بين الدول المتقاتلة على المنافع - المتنافسة على النهب . . . 1

وعلى الرغم من الكوارث التي أنزلتها بالبشرية ، تلك الحرب فأنت
ملوك المال لم يزدادوا بها إلا نُفُوساً . . وإلا اقتناعاً بأن الحرب
تنهش التجارة . . وهكذا لم يحاولوا أن يطمّنوا من جشعهم حتى
لا تتعرض البشرية لمحنة أخرى . . فساروا بالدنيا إلى كارثة الحرب
العالمية الثانية . !

وبين يدي هذه الحرب أيضاً تجمعت ظروف نشوبها ، وعلى رأس
تلك الظروف نفس الآفة ، ضراوة الربح ورأس المال . .

فألمانيا ، أخذت صناعاتها تغزو الأسواق في تفوق ملحوظ . .
ولنتاجها زاد ونما . . ونجاحها هذا ضاعف من حاجتها إلى المواد الخام
لتصنع . . وإلى الأسواق لتصدر .

ومثل ذلك تماماً - اليابان ، وإيطاليا قبيل الحرب العالمية الثانية
كانت بريطانيا ينقصها من المواد الخام اللازمة لكافة الصناعات أربع
مواد لاغير . ؟

بينما ينقص ألمانيا ، ست وعشرون مادة .

وينقص إيطاليا ، ثنتان وعشرون مادة .

وينقص اليابان ، تسع عشرة مادة .

وهذه المواد التي تنقص تلك الدول الظامّة الطامعة - من حديد .

ونحاس ، وصفيح ، وخم ، وبترو ، ومطاط وقطن ، وخشب ،
وصوف الخ .

هذه المواد ، ترجد متفرقة في أقطار شتى من الأرض ، تستعمرها
دول أخرى مثل بريطانيا ، وفرنسا . .

فهل تغلق الصناعات في ألمانيا وإيطاليا واليابان ، أبوابها ؟
هل يحنى ملوك المال في تلك البلاد رؤوسهم ويستسلمون ؟
كلا . . . ولا بد من صنعا وإن طال السفر . .

وهكذا تأخذ ألمانيا الرين والساار ، ثم تخطف النمسا وتشكوسلوفاكيا . .
وتخطف إيطاليا الحبشة . . وتغزو اليابان الصين .

ولقد أعلن الدوتشي قبل غزو الحبشة أن إيطاليا في أشد الحاجة
إلى القطن والبن . . ولهذا ستهب إلى الحبشة . .

وفي هذا الوقت ، كانت أمريكا تأمر زراع القطن في بلادها أن
يتلفوا أجزاء كبيرة من الأرض المزروعة قطناً حتى لا تسبب وفرة
المحصول في خفض السعر . .

وكذلك . كانت البرازيل ، تلقى إلى جوف المحيط بملايين الأطنان
من محصول البن حتى لا ينخفض سعره بسبب وفرته .

انظروا . . . ! !

بلاد تتلف المحاصيل ، لكثرتها ولكي تضمن سعرا أعلى . .
وأخرى ، تسوق أساطيلها وجيوشها للمستعمر بلداً حراً تسده يأتاجه
جوعها إلى القطن وابن . . القطن الذي يتلف فائضه في أمريكا . . وابن
الذي يغرق فائضه في البرازيل . . . ! !

وليس يقتصروا على التجارة والأسمالية على إشعال الحروب ، ونشر
الاستعمار . بل هي قبل هذا تعطل حركة التاريخ بمساندتها القوى
الرجعية وتأييدها المطلق للفاشية .

حدث هذا في إيطاليا عام ١٩٢٠ حين قام نصف مليون عامل
بالإضراب احتجاجاً على الظلم الواقع بهم من أصحاب المصانع .

يقول نهرو في كتابه « لمحات من تاريخ العالم » :

- « وأخذ أصحاب المصانع يفكرون في خطة للانتقام ، »
- « ولتخبط الحركة العمالية والحزب الاشتراكي . . »
- « وكان أول من فكروا بالاستعانة بهم ، جماعة »
- « من المغامرين بقيادة - بنيتو موسوليني - أطلقت »
- « على نفسها - الفرق الفاشية - وأخذ كبار الرأسماليين »
- « وأبناء الطبقة البرجوازية الكبيرة يمولون هذه »

—٤٩—

« الفرق الفاشية ، ويحاولون استخدامها في مقاومة ،
« الاشتراكية »

وحدث مثل هذا في ألمانيا كذلك .

يقول « نهر » ، في نفس الكتاب :

« وقد نجح هتلر نجاحاً كبيراً في الاحتفاظ بين يديه ،
« بكل هذه التيارات على ما فيها من تناقضات . . .
« واستطاع أن يجعل الطبقات الوسطى الفقيرة ،
« تتحالف مع أصحاب المصانع ، وملاكى الأراضي ،
« الكبار »

« وسبب هذا ، أن أصحاب المصانع أيدوا هتلر ،
« وزودوه بالمال لأنه كان رغم تظاهره بمقاومة ،
« الرأسمالية ، يشكل أكبر عائق في طريق الاشتراكية ،
« العلية الصحيحة »

* * *

ومثل ذلك أيضاً حدث في أسبانيا . . فوراء الجنرال فرانكو -
كان أصحاب الاقطاع الذى قررت حكومة الجبهة الشعبية تصفيته ،
يقفون ويتآمرون . . وكان الرأسمال الاجنبى - البريطانى والفرنسى -

يذهب في تأييده وتعضيده مذهباً بعيداً . لأن المناجم الاسبانية الكبرى كانت جميعها تستثمر بـرموس أموال بريطانية وفرنسية .

* * *

ما مغزى هذه العجالة التاريخية التي سردناها . . ؟

هل نلغى التجارة . . ؟؟

هل نقف نشاط المال ، ورأس المال . . ؟؟

سؤالان وجهان . . والإجابة عنهما آتية . . ولكن لنذكر هنا . .
أن أساليب التجارة ورأس المال . . تقف على رأس الأسباب التي
تمزق عالمنا .

ولنتقل الآن إلى آفة أخرى ، هي بهذه وثيقة الصلة . . وهي أيضاً
لا تقل عنها ضراوة وفتكا .

مِنْ اِحْلَافِ الْمَقْدَسِ
إِلَى مِيشَاقِ الْأَطْلَسِ

إذا بقيت الأخطاء دون تصحيح تعاقبت في تسلسل حتى لا مفر منه.

والخطايا ، ينادى بعضها بعضاً ، وكلما تجمعت خلق تجمعها هذا
ظروف نموها واستمرارها .

والتجارة في حد ذاتها . لم تكن خطأ ولا خطيئة . . ولكن
طريقةها في العمل ، وتحولها إلى قوة إحتكارية طاغية ، وغازية ، جعل
منها خطيئة كبرى .

ولقد أنجبت الخطيئة سلالة طويلة من الأبناء والحفدة . . وأكثر
فلذاتها شراً ، وضراً - الأحلاف . .

وعبر التاريخ سار الوالد وما ولد . . . سارت التجارة والأحلاف
ليفرضنا على عالمنا . إرادة الشر والنزاع ، والحرب .

وقد عرفت التجارة أهمية الأحلاف إبان الحروب الصليبية أيضاً .

فالمدن الإيطالية التي كانت تزعم الاقتصاد الأوربي ، والتي رأيناها
تقف وراء الحروب الصليبية . . كان الخلاف كلما نشب بينها ، عالجته
ببلاقة الحريص على المغامرات المشتركة . والمصير المشترك .

وسنكتفي هنا بملاحظة سير الأحلاف خلال الأعوام المائة التي

سبقت الحرب العالمية الأولى . . تلك التي بدأت عام - ١٨١٤ - لآثر هزيمة نابليون . .

إن الدرس الذي تتلقاه عن تلك الأحلاف في الحقبة المذكورة . . أعنى منذ - ١٨١٤ - حتى يومنا هذا - هو درس نافع وعظيم .

وسنرى كيف كان سير الأحلاف من عام ١٨١٤ ، إلى عام ١٩١٤ ، يتجه حتماً إلى تلك الحرب الكبرى ، بعد أن أشعل في طريقه إليها عشرات الحروب المحلية . . .

سنرى كيف أن الحرب العالمية الأولى لم تعلن عام - ١٩١٤ - . . وإنما أعلنت عام - ١٨١٤ - ، ونشبت عام - ١٩١٤ - .

لقد اتجهت - أوروبا - في شعار شديد إلى سياسة الأحلاف بعد هزيمة - نابليون - وسارت الأحلاف جنباً إلى جنب مع الاحتكار الطامع .

بعد أن دخل المنتصرون على نابليون مدينة باريس - قرروا ، وكانوا روسيا - بروسيا - النمسا - بريطانيا ، أنهم اجتمعوا لتوثيق الأواصر التي تربط الحلفاء ، ولحماية السلام :

وفي مؤتمر - فيينا - الذي تلى اجتماع - شومون - كادت أطماعهم المتصادمة تعصف بهم وبالمؤتمر .

وفي عام - ١٨١٥ - دعا « أسكندر الأول » قيصر روسيا ،

— ٥٥ —

إلى د الحلف المقدس ، . . راجياً أن يحىء هذا الحلف تصحيحاً
للوقف كله . وبداية لعهد جديد يقوم على السلام والخير ، وفي نفس
الوقت يصون وحدة الحلفاء الكبار الأربعة ، لنزجر هذه الوحدة
أى نابليون آخر تنشق عنه الأرض ذات يوم .

وانعقد الحلف المقدس ، ووقعت دول أوروبا ، وتعهد المشتركون
فيه أن يكون رائدهم د العدل ، والاحسان ، . . والسلام . . .

وعلت أهاليج البشائر ، بأن القرن التاسع عشر ، سيكون قرن
السلام والرشاد . .

فهل كان كذلك حقاً . . ؟؟ .

عجباً . . لقد جاء القرن التاسع عشر ، أكثر القرون ازدحاماً
بالحروب . . وأكثرها إيغالا في الاستعمار . . وأكثرها تحدياً للعدل
والإحسان وللسلام . . !!

خلال هذا القرن . .

خاضت د بريطانيا ، حروباً كثيرة في افريقيا . . وحاربت إيران
مرة . . وأفغانستان مرتين . . وخاضت ضد الصين حربين . . وضد
بورما ثلاث حروب . . وخاضت هي وفرنسا وروسيا حرب القرم . ١٠
وشنت فرنسا حروباً ظالمة في شمال افريقيا ، واستولت فيها على

الجزائر، ومراكش ، وتونس . . وشنت حربا أخرى في افريقيا
الاستوائية ، والهند الصينية ، واستولت عليهما . . !

وخاضت روسيا القيصرية ضد تركيا ثلاث حروب . . وضد
إيران ثلاث حروب أخرى . . وشنت . . على الصين حربا استولت
فيها على - فيلاديفوسك - . . !

وحتى إيطاليا ، التي كانت تحتلها النمسا ، لم تكف تتحرر من
مستعمرها حتى شنت هي الأخرى حربا ضد الحبشة احتلت فيها
- اريتريا - . . وحربا أخرى ضد تركيا ، استولت فيها على
- طرابلس - . . !

ولم تشأ «بروسيا» أن تقف متفرجة ، فحاربت النمسا . . ثم تحرشت
بفرنسا ، وحاربتها ، وأخذت ملكها أسيراً ، واستولت على الألزاس
واللورين . . واستمرت الحرب فنقلتها إلى الصين وافريقيا . . !

وأدلت اليابان دلوها ، فشنت على الصين حربا . . !

وعزّ على النمسا أن تفقد إيطاليا ، وألمانيا . . فيممت وجهها
شطر البلقان ، واشتبكت مع تركيا . . !

هذه هي «حصيلة» القرن العشرين من السلام ، ومن العدل ، ومن
الإحسان ! ! !

إن أوروبا التي صممت عام ١٨١٥ ، أن تمنع قيام أى بونا بارت
آخر يغزو ويفتح ويملا الأرض دما وفسادا .

أوروبا هذه . . تحولت كلها إلى معامل تفريخ تنافس في تفريخ
، بونا باراتات ، لا حصر لها . . .

والآن ، لننظر كيف حدث هذا ، وكيف ملأ القرن التاسع عشر
بالحروب ، وبالبنى . . .

وقبل هذا ، نسأل : لماذا تقوم الأحلاف . . ؟؟ إنها قطعا لا تقوم
لحماية الخير المشترك للناس جميعا . . إذ لو كانت هذه غايتها ، لا تنظم
الحلف جميع الدول ، وجميع الأمم . . وحلف من هذا النوع لا حاجة
بالناس إليه ، لأن منظمة دولية تلزم قواعد الحق والعدل والقانون
كفيلة بتحقيق الخير المشترك للشعوب . .

ولكن الأحلاف تقوم بين جماعة يريدون الظفر بغنائم مشتركة . .

ولما لم تكن الدنيا ، هي هذه الجماعة وحدها . . فسيقوم في بعض
أركانها الأخرى لا محالة ، جماعة أخرى لها مصالح مشتركة ، فتتنظم
في حلف آخر . . وهكذا . . .

وهذه الأحلاف تشد أزر البنى والسطو لأن الدولة التي لا تقدر
على البنى منفردة . . نواتها الفرصة حين تجد لها حلفاء ونصراء .

ولعلّ النزاع المرير الذى قام بين «كليمنصو» ، و «ولسون» ،
 فى مؤتمر الصلح نشأ عن إدراك «كليمنصو» ، لهذه الحقيقة . . حقيقة
 أن فرنسا لم تهزم ألمانيا إلا بقوة حلفائها الكثيرين ، أمريكا .
 وبريطانيا . وروسيا . وإيطاليا . وغيرها . .

وهو غير متأكد من أن تتاح الفرصة لفرنسا مرة أخرى . . ؛
 فهؤلاء الحلفاء التقوا على منافع - لا مبادئ . . وقد تتضارب المنافع
 غدا ؛ فلا يتفقون . .

وهكذا صمم على إرجاع النظر فى تشكيل عصبة الأمم كما يريد
 «ولسون» حتى ينتهوا أولاً من تسويات الحرب ، وحتى تحدد فرنسا
 غنائمها منها .

نقول : إن الأحلاف تقوم لتحقيق مآرب خاصة لمجموعة الدول
 المتحالفة . وهى بهذه المثابة لا تفرز سوى عداوات وريب . وتحرض
 على مقاومتها ، وتحض على محاكاتها . . كما أنها بقيامها لحماية مصالح غير
 مشروعة ، ومواقف عدوانية غير عادلة . . تتخذ غالباً نهجاً مضاداً
 لحقوق الإنسان .

وهكذا لم يكده «الحلف المقدس» يبدأ متوخياً المبادئ الخيرة ،
 حتى عملت بريطانيا على إخفاقه ، فرفضت توقيعه . . ثم عملت جاهدة
 لتحويله إلى حالف آخر باسم «الحلف الرابعى» ، أعضاؤه الدول

الأربع نفسها . . ولم ينجل أصحاب هذا الحلف من أن يقرروا أن
الفرض منه هو « مقاومة المبادئ والحركات الثورية » . . .

مع أن المبادئ والحركات الثورية يومئذ كانت تعنى محاولات
الأمم الصغيرة ، والشعوب المستعبدة أن تتمتع بحريتها واستقلالها . .
وتغادر مكانها كحليّة في تيجان الملوك والأباطرة الذين كانوا
يستعبدون معظم شعوب العالم يومذاك .

وتحول « الحلف الرابع » بدوره إلى حلف آخر هو « المحفل الأوربي »
وفي هذا الحلف ظفر طاغية النمسا « مترنيخ » بجر أعضاء الحلف
جميعهم إلى قمع كل الحركات الجماهيرية الساعية إلى الديمقراطية ،
والحرية . .

وهكذا أثمر هذا الحلف الثورات في كل أوروبا . . وهيا أسباب
حروب كثيرة مستشب في كل مكان ، حتى تُقضى آخر الأمر إلى الحرب
العالمية الأولى .

* * *

في عام — ١٨٦٢ — نلتقى بـ « بسمارك » واقفاً يخطب في
البرلمان البروسي ويقول :

« إن تخومنا الحالية كما أقرها مؤتمر فيينا غير ملائمة »

« لنا .. وعلى برّوسيا أن تستجمع قواها ، وتحل ،
« مشاكلكم بالدم والحديد »

وتبدأ فعلاً جولة الدم والحديد . التي أنجبتها أحلاف فيينا ،
« وشومون ، والحلف الرابع ، والمحفل الأوروبي ..

يبدأ بسمارك بالنمسا .. ويحصد نفسه في حاجة إلى قوى تؤمن مستقبل
الحرب بالنسبة له .. فيلجأ إلى الأحلاف - يحالف روسيا القيصرية ،
ويحالف إيطاليا ، ويضمن حياد فرنسا وبريطانيا .. ثم يضرب
ضربته ..

وتنتهى الحرب بفوز بسمارك .. فيولى وجهه شطر فرنسا وهزمها
هزيمة ساحقة ..

ويتلفت القيصر ، فيرى أن بسمارك قد أحسن استغلال تحالفه
معه .. وأنه يبطش لا بقوته وحدها .. بل بقوة الحلف الذي يربطه
وروسيا .. ؛ فيقرر هو الآخر أن ينتفع بمزايا هذا الحلف .. وفعلاً
يتقدم ويعلن الحرب على تركيا .

وفيما بعد تهتل إيطاليا بالفرصة ، فتهاجم هي الأخرى تركيا ،
« وتستولى على طرابلس ..

— ٦١ —

وينشأ حلف جديد ، اسمه « حلف الأباطرة الثلاثة » ، بين قيصر روسيا ، وامبراطور النمسا ، وامبراطور بروسيا .

وتتصادم المصالح بين روسيا والنمسا . فيتقوض الحلف ويقوم مكانه حلف « ألمانيا - النمسا » .

ثم يقوم حلف بين بريطانيا وإيطاليا . . تبارك انجلترا احتلال إيطاليا لطرابلس . . وتبارك إيطاليا احتلال بريطانيا لمصر . .
وتنضم النمسا لهذا الحلف . .

ويحدث رد الفعل ؛ فتسارع فرنسا وتبرم حلفاً مع روسيا .

وفي نفس الوقت تبرم اتفاقاً سرياً مع إيطاليا ، المشتركة في حلف مع بريطانيا والنمسا . . ويقوم هذا الاتفاق السرى على أن تحتل إيطاليا تونس ، وتحتل فرنسا مراكش . .

وتفاجأ بريطانيا بخيانة حليقتها إيطاليا . ، فتسارع إلى محاربة فرنسا . . وتبرم معها الاتفاق الودى المشهور عام - ١٩٠٤ - ويقضى بموافقة بريطانيا على احتلال فرنسا لتونس . واعتراف فرنسا بمركز بريطانيا في مصر .

وتطمع بريطانيا في مزيد من الغنائم والنهب . . ، فتبحث عن حلف جديد ، ما دامت الأحلاف هي الطريق الأمثل لهذا . .

— ٦٢ —

وهكذا تنشئ مع روسيا حلفا عام - ١٩٠٧ - يقسمان به بلاد
الأفغان ، والتبت ، وإيران . . . !!

وعند هذه النقطة يقف العالم كسنتين :

ألمانيا . إيطاليا . النمسا - في جانب

بريطانيا . فرنسا . روسيا - في جانب آخر

وفي هذين الحلفين تبلورت كل الأحلاف السابقة . بما تنطوى عليه
من غدر ولؤم ووصولية . . واقتراب يوم الفصل . .

وهكذا لم يطلع صباح ٢٨ يولية عام ١٩١٤ ، حتى كانت نواقيس
الحرب العالمية الأولى تفرع مرجفة مزلولة .

* * *

إن هذه اللقطة التاريخية التي سردنا فيها تسلسل الأحلاف ليست
خالية من المغزى . .

وإن مغزاها الواضح مبين . . فهي ترينا كيف أن الأحلاف دائما
أقرب الطرق إلى الحروب . . وكيف أنها تغرى بالحروب المحلية
الصغيرة بين دولة وأخرى . . ثم لا تلبث حتى توقد نار حرب
عالمية كبرى .

حدث هذا على النحو الذى أسلفنا ذكره بين يدى الحرب العالمية الأولى . .

وسنرى الآن . . نفس الشيء يتكرر وتكرر معه نتائجه من عام ١٩ حتى قيام الحرب العالمية الثانية .

* * *

فعندما اجتمع ولسن ، ولويد جورج ، وكليمنصوه في مؤتمر الصلح ، لم يختلف مؤتمريهم كثيراً عن مؤتمر « فيينا » الذى انعقد قبلئذ بمائة عام بين اسكندر الأول ، وفردريك ، ومترنيخ ، وكاساريه . .

ولم تشفع عظام خمسة وعشرين مليوناً من ضحايا الحرب العسكريين والمدنيين . . لم تشفع لدى السادة المجتمعين ليحسنوا الآفاده من المحنة ، وليضعوا أسس سلام وعدالة . . بل إن « ولسن » نفسه بروحه الطيبة الخيرة . وبمبادئه السامية العادلة ، صار موضع مناورات المؤتمر ، وتندر المؤتمرين ، وهدفا لإساءة حلفائه ، سيما كليمنصو العنيد . .

وراحت أوروبا تنشىء أحلافاً تلو أحلاف مهيئة الأسباب لحرب عالمية أخرى .

فسمعنا عن اتفاقية « سايكس بيكو » . . واتفاقية « ولويد جورج - كليمنصو » بشأن سوريا ولبنان . .

وسمعتنا عن حلف مناهضة الشيوعية بين ألمانيا واليابان - عام ١٩٣٨ .
 واتفاق الجنتلمان . . بين إيطاليا وبريطانيا - عام ١٩٣٨ .
 والحلف الدفاعي الهجومي بين ألمانيا وإيطاليا عام ١٩٣٩ ، ثم محور
 ألمانيا إيطاليا - اليابان . . .

وسمعتنا عن - الحلف البريطاني - التركي .

والحلف البريطاني الفرنسي - التركي . .

ثم حلف ألمانيا والاتحاد السوفيتي .

وكانت هذه الأحلاف جميعاً تنطوي على ظاهرة محتومة هي -
 الأعداد للحرب . .

وبسبب هذه الأحلاف تمت جميع الحروب وغزوات الخطف التي
 سبقت الحرب العالمية الثانية ، وكانت سببها الأول .

تخطف إيطاليا الحبشة ، وغزو اليابان للصين ، وخطف هتلر للنمسا
 وتشكوسلوفاكيا . وبولندا . كل هذا تم في ظل هذه الأحلاف .

وكما حدث قبيل الحرب العالمية الأولى من تركيز الأحلاف في
 معسكرين متقابلين . في كل معسكر تقف دول كبرى تجاه دول كبرى
 نظيرها . . حدث نفس الشيء قبيل الحرب العالمية الثانية .

— ٦٥ —

نم رأينا ألمانيا ، وإيطاليا ، واليابان - في جانب
وبريطانيا ، وفرنسا ، ثم أمريكا فيما بعد - في جانب آخر . .
وكان لابد من حرب عالمية ثانية . .
وفعلا - قامت الحرب !

* * *

وكان حصادها فادحا . .
وعلى جبل عال من : -
اثنين وثلاثين مليونا - قُتِلوا في معارك الحرب .
وعشرين مليونا - قتلوا في الغارات :
وست وعشرون مليونا - قتلوا في معسكرات الإبادة .
وثلاثين مليونا - من المشوهين .
فوق جبل عال من جثث هولاء الضحايا . . التقى زعماء العالم ،
وتناقشوا ، واجتمعوا . .
فهل كانوا أكثر توفيقاً وسداداً من الذين سبقوهم في مؤتمر « فيينا »
ثم في « مؤتمر الصلح » . . ؟ ؟ ؟

إذا كان التسابق على الأحلاف ، هو المعيار الذى نقيس عليه
سَفَه السياسة وطيشها . فكم نحن مضطرون إلى الاعتراف بأن رصيد
السياسة من السفه ومن الحق لم تَمسسه فواجع الحرب العالمية الثانية
بسوء ولا نقصان . . . III ،

أجل . . لقد بدأت جولة أخرى لسياسة الأحلاف وكان
عشرات الحروب الصغيرة ، والحربين العالميتين الكبيرتين . . لم تكن
كافية ، ولا تزال غير كافية لشدائد حياة بلا حروب ، وبلا أحلاف . . ١٩

* * *

• فى ١٢ مارس عام ١٩٤٨ . ألقى « ترومان » رئيس الولايات
المتحدة يومئذ خطاباً أعلن فيه أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة ،
تتوخى مساعدة كل أمة تدافع عن نفسها ضد أى تدخل . .

• وبعد هذا الخطاب بخمسة أيام لا غير (١) وقع فى بروكسل .. حلف
دفاعى بين فرنسا ، وإنجلترا ، وهولاندا ، وبلجيكا ، ولكسمبورج ..

• وبعد توقيع الحلف بساعات (١) وقف « ترومان » يخطب أمام
الكونجرس مباركاً الحلف وأهله ومعلمنا أن « هذا التطور يستحق من
الولايات المتحدة المساعدة الكاملة » . .

• وبعد هذا الخطاب بأيام اقترحت لجنة الشؤون الخارجية بالكونجرس

الأمريكي اشتراك أمريكا في ميثاق الضمان الجماعي لحماية السلام
العالمي (١) ...

• وبعد ذلك بأيام ، صار الاقتراح قراراً من قرارات الكونجرس
وأعطى هذا القرار حكومة الولايات المتحدة حق التوسع في إنشاء
التنظيمات الإقليمية ... ؟

• وأخيراً ... وفي ٤ أبريل عام ١٩٤٩ ولد الحلف الكبير وحلف
الاطلسي ، .. ووقعته أمريكا وكندا ، وفرنسا ، وبريطانيا ،
وإيطاليا ، وبلجيكا ، وهولندا ، والدانيمرك ، ولكسمبرج ،
والبرتغال ، والنرويج ، وإيسلندا ..

وكما أن معظم الأحلاف التي قامت في ظل «عصبة الأمم المتحدة»
كانت تنص على أنها تعمل داخل مبادئ العصبة وميثاقها .. فإن
«حلف الأطلسي» والأحلاف التي ستقفو أثره .. لن نسي أن تجامل
«هيئة الأمم المتحدة» بتلك العبارة المهدبة .

«يؤكد أعضاء هذه المعاهدة لإيمانهم بأغراض ميثاق»
الأمم المتحدة ومبادئه (١) :

وكما أن معظم الأحلاف التي أشعلت الحروب السابقة ، كانت تنص
على أنها دفاعية .. كذلك أحلاف ما بعد الحرب العالمية الثانية ،
تقسم بأغلب الإيمان أنها «دفاعية» .. !

إن حلف الأطلسي . جاء امتدادا لسياسة الأحلاف السالفة . .
امتدادا لمعاهدة «شومون» ، و «الحلف المقدس» و «الحلف الرباعي»
وما جاء بعدها من أحلاف .

ولقد فتح الباب لأحلاف أخرى قام بعضها مقاومة له . . وقام
بعضها الآخر تعصيذا له . .

فالاتحاد السوفيتي ، ودول الكتلة الشرقية ، رأت في هذا الحلف .
تحدياً لها .

وفي ٣١ مارس عام ١٩٥٤ ، تلقت حكومات أمريكا ، وبريطانيا ،
وفرنسا مذكرة من الاتحاد السوفيتي يطلب فيها الموافقة على انضمامه
إلى حلف الأطلسي . .

والاتحاد السوفيتي يعلم سلفا ، أن نصوص هذا الحلف ، لا تعطيه .
الفرصة التي طلبها . . ومع هذا تقدم بطلب الانضمام الذي كان نصيبه
الرفض طبعاً . . ولقد أخرج هذا الرفض حلف الأطلسي وأعضائه
أيما إحراج . .

وفي ٢٣ أكتوبر عام ١٩٥٤ ، وافق أعضاء الحلف على ضم
ألمانيا الغربية إليه . .

وألمانيا . عدو لدود للاتحاد السوفيتي ولأوروبا كلها - وهي
دائماً مصدر الخطر الأول لروسيا ولأوروبا . .

هنا لك دعت روسيا لمؤتمر «الامن الاوربي» . ولكنه أخفق بسبب إعراض معظم الدول المدعوة إليه ، ورفضها المشاركة . . .
وهنا . . . وفي ١٤ مايو عام ١٩٥٥ ، ولد حلف كبير آخر على غرار حلف الأطلسي . . . هو «حلف وارسو» . . . بين الاتحاد السوفيتي ، وجميع دول أوروبا الشرقية والديمقراطيات الشعبية .
وفيما بعد ، يقوم حلف البلقان . . . والحلف التركي الباكستاني ، والحلف العراقي التركي . . . وحلف بغداد . . . الذي أسموه أخيراً «الحلف المركزي» . . .
وحلف جنوبي شرقي آسيا . . . وتُسهيأ الأمور اليوم لحلف البحر الأبيض المتوسط . . . هذا عدا المحالفات الكثيرة التي تقوم بين الدول بصورة ثنائية . . .

ما معنى هذا ؟ . . .

معناه أن سياسة الأحلاف والتكتلات ، لا تزال تحتل بؤرة التفكير . . .
ومعناه أيضاً أن خطر الحرب والانقسام والدمار ، يعود في صحة هذه الأحلاف ليسلب العالم سكينته وطمأنينته .

أزبابُ الأرض!..!

على صعيد السياسة العالمية ، لم يكن رأس المال ، والأحلاف يعملان
وحدهما لافساد العلاقات الانسانية ، وتدميرها . . بل كان هناك معهما ،
النزاع على السيادة . .

وفي عصور خلت ، كان النزاع على السيادة محليا ، ومحدوداً بعض
الشي . . يوم كان العالم عوالم مشتى متباعدة .

أما اليوم ، وقد امتزج عالمنا ، واقتربت مسافات ، فالسيادة الآن
تريد أن تشملها جميعا . . ومن ثم فالتزاع على السيادة اليوم خطرو عنيده .
من الدولة التي تسود . . ؟ من الدولة التي يكون لها الكبرياء
في الأرض . . ؟

هذان السؤالان مهتداً دوما ، وفي كل العصور لقيام ما نسميه
بالدول الكبرى .

والحرص على بلوغ هذا الوصف . سبب كثيرا من الشقاء لعالمنا . .

من أجل هذا تتحتم على البشرية الحديثة التي تنهض اليوم لبناء
نفسها ، أن تشيع خرافة د الدول الكبرى ، إلى القبر وتزف أرباب
الأرض إلى مصيرهم المحتوم ، وأن يعلن العالم نفسه ، عالماً بلا أرباب .
ويبدأ هذا بأن نعرف الفلسفة التي تقوم عليها نظرية د الدول
الكبرى ، . . .

هناك في تاريخنا البعيد، والقريب، والمعاصر، تعبير سياسي مذهب:
اسمه « حفظ التوازن » ..

ولحفظ التوازن هذا، في التاريخ السياسي لعالمنا طرائف
وذكريات .. ١

فبسمارك برر كل حروبه، وغزواته بحفظ التوازن .. ١
ومترونيخ ساد أوروبا بطغيانه أكثر من ربع قرن، وفرض عليها
سيادة النمسا وربوبيتها باسم « حفظ التوازن » .. ١
وبريطانيا انتهت امبراطورية لا تغيب عنها الشمس باسم « حفظ
التوازن » .. ١

وفرنسا ملأت الأرض دماً باسم « حفظ التوازن » .. ١
وكانت كل دولة كبرى تنتقل من حلف إلى حلف، وتعاذى اليوم
صديقها بالأمس، وتصادق غداً عدوها اليوم - لا باسم النفاق
والوصولية، والمنفعة .. بل باسم « حفظ التوازن » .. ١

وحين طرد العرب من بلادهم وديارهم، وأخرجوا من أرزاقهم
وأقوات عيالهم في فلسطين .. تقدمت دول كبرى وتعدت باحترام
هذا الوضع « ١ »، باسم « حفظ التوازن » .. ١

وحين منع الغرب عنا أسلحة دفعنا ثمنها . برر هذا المنع بـ
« حفظ التوازن » .. !

ماذا يعنى « حفظ التوازن » هذا . . ؟

إنه يعنى الاحتفاظ بحقوق الزعامة ، وحقوق السيادة ،
وحقوق التفوق والتأله ، لدول تريد أن تعيش دائماً فوق الدول ،
وفوق الجميع . .

وكل دولة كبرى تجعل شعارها « لا مكان لاثنين هنا » . . وهنا
فى رأيها تعنى العالم . . تعنى أرض الله الواسعة .

ولهذا نجد الاتفاق بين دولة كبرى ، وأخرى مثلها ، كان يقوم
فى التاريخ كله على أسس تبعد تمام البعد عن المبدأ . . وعن العدل . .

ونجد أيضاً أن معظم ما حاق بالعالم عبر التاريخ كله ، من مصائب
وكوارث ، تم على أيدي دول أسكرها وأعماها الشعور المتفاقم
بالسيادة والاستلاء .

والدول الكبرى ، هى التى أرهقت بسياسة الانانية والكذب
عالمنا مسكيناً .

لقد اجتمع فى مؤتمر « فيينا » الذى أعقب الحروب البونابارتية
— أربعة كبار — .

هم : روسيا ، بروسيا ، النمسا ، بريطانيا .. ١
 واجتمع في مؤتمر الصلح الذي أعقب الحرب العالمية الأولى
 - ثلاثة كبار - ..

هم : الولايات المتحدة ، بريطانيا ، فرنسا .. ١
 واجتمع غداة الحرب العالمية الثانية - أربعة كبار . .
 أمريكا - روسيا - بريطانيا - الصين - .. ١

* * *

أما الأربعة الكبار الذين اجتمعوا في مؤتمر فيينا ، فقد اقتسموا
 العالم قسمة ، أشعلت الثورات والحروب في كل مكان .. بسبب
 إصرارهم على امتيازاتهم الظالمة ، وبسبب ضربهم بحقوق الدول
 الصغرى عرض الحائط .. ومن الطريف أنهم قالوا في ديباجة اتفاقهم
 المكتوب يومئذ ، إنهم يفعلون هذا « حفظاً للتوازن الدولي » .. ١

وأما الثلاثة الكبار الذين اجتمعوا غداة الحرب العالمية الأولى
 فقد تنكروا لكل حقوق الإنسان .. أو بتعبير أكثر أمانة
 وصدقا - نقول : إن اثنين منهم هما بريطانيا وفرنسا ، تنكرتا
 لكل ماهو حق ، وسار سلوكهما . وكأنهما في مؤتمر حرب -
 لا مؤتمر صلح .

والحرب التي كاتنا تجلسان فوق كومة عالية من أنقاضها .
 وضحاياها ، لم تلهمهما حكمة وعدلا ، فوقفتا توزعان العالم من جديد ،
 وضاع في ضجة أطماعهما صوت حليفهما « ولسن » الذي حاول عبثاً
 أن يحمي حقوق الإنسان وينقذها من أنياب حليفه الكبيرين ..
 وكان عاقبة مسعاه ، وجهود بلاده في الحرب ، أن تمدهاء « كلنصو »
 وقال له ، وهو ضيف عليه في بلاده فرنسا ..

« إذا لم توافق يا سيدى على ما نريد ، فإنك تستطيع ،
 « أن تعود إلى بلادك .. ١١١ »

وانتهى مؤتمر الكبار الثلاثة نهاية مشابهة لمؤتمر الكبار في فيينا ..
 وأما الكبار الذين اجتمعوا غداة الحرب العالمية الثانية ؛ فقد بدأ
 بأسهم بينهم شديداً .. ولم يستطيعوا وهم يخططون عالم ما بعد الحرب ،
 وينشئون « مجلساً للأمن » يحمي مصير العالم .. لم يستطيعوا أن يتخلوا
 عن كبريائهم ، فابتدعوا ما أسموه « حق الفيتو » ..

ولمن حق الفيتو هذا ؟ ؟

إنه للكبار وحدهم ..

ولقد حدث أن استعمل « الفيتو » لنقض قرارات ظالمة ، وأنقذ
 استعماله بعض الأمم الصغرى من مؤامرات كانت تحاك لها ..

ولكن حدث أنه كذلك استعمل ، ويمكن أن يستعمل لدعم

مرا كز الوثوب والعدوان التي تخص بعض الدول الكبرى .

ومهما يكن من شيء ، فإن عجز الدول الكبرى على أن تلتقي في غير ريبة ودخل ، هو الذي حرم العالم من أن تخلّص له إحدى مؤسساته الكبرى من مثل هذه القيود المعوقة العجيبة .

إن إحساس دولة ما بأنها كبرى . . وحرصها على أن تظل كذلك ، يحضنها دوما على الاحتفاظ بمزايا هذا اللقب وهذا الوضع .

ولما كان وجود دول كبرى ، لا يتأق إلا إذا كان هناك دول صغرى ، فإن ذلك يعنى لا محالة قيام تمايز مستمر وتفاوت دائم بين الكبرى والصغرى . .

ويعنى كذلك دعم الشروط التاريخية التي تسبق الدول الصغيرة صغيرة . . لتظل معالم الامتياز والتفوق من نصيب الدول الأخرى الكبرى . .

ولنسأل الآن سؤالا :

ماهى الاعتبارات التي تجعل الدولة الكبيرة كبيرة . . ؟

إن الأجابة عن هذا السؤال ، توضح لنا المضمون السياسى لاصطلاح « الدول الكبرى » .

وأماننا مثال كبير الدلالة يصلح أن نبدأ به الاجابة ، بل يصلح أن يكون هو الجواب .

فالصين الوطنية ، التي كان يرأسها « شيانج كاي شيك » كانت إحدى الدول الكبرى غداة الحرب العالمية الثانية فهل كان لها من خصائص الدولة الكبرى شيء ، حتى استخدمت هذا الوضع . . ؟

كلا . .

لم يكن لها جيش قوى ، ولا أساطيل . .

لم يكن لها صناعات ، لا خفيفة ولا ثقيلة ، . .

لم يكن لها موارد الدولة الكبرى . .

وشعبها ، كان متخلفا ، وأميا . . عشرة في المائة منه هم الذين يقرءون ويكتبون . .

وأما الحكومة ، فقد شاع فيها من الفساد ، والانحلال ما جعل كبار القواد الأمريكيان أنفسهم يصفونها بأقذع الأوصاف . .

فكيف إذن كانت إحدى الدول الكبرى . . ؟

ألأنها خاضت الحرب في صف الديمقراطية . .

هناك دول كثيرة خاضت الحرب مع الديمقراطية ؛ وكانت

— ٨٠ —

حكوماتها أكثر ولاء الديمقراطية وللحكم الصالح من حكومة السيد .
«كاي شيك» .. ثم لم تصر دولا كبرى .. بل لم تستطع أن تحتفظ
بمقوق الدول الصغرى .. ١١

على أن للسئلة بقية جدرة بأعمال الفكر .

فالصين الوطنية هذه اختفت ذات يوم ، وانكشفت في جزيرة
«فرموزا» ..

وتمهضت «صين» أخرى تلتظم ستمائة مليون إنسان لها جيش قوى ..
لها صناعات كبرى ، خفيفة ، وثقيلة .. لها زراعة حديثة ،
ولإنتاج هائل ..

ومع هذا ، فهي لم تأخذ مكانها بين الأربعة الكبار فحسب ، بل
وحرمت من الحق الذي تتمتع به دويلات لايزيد تعداد أهلها عن
ربع مليون نفس .. ١

أجل حرمت الصين من أن تكون عضواً في هيئة الأمم
المتحدة .. ١١١

فلماذا .. ؟؟

ألأنها شيوعية .. ؟؟

— ٨١ —

في هيئة الأمم المتحدة دول شيوعية .. بل فيها جميع الدول
الشيوعية ..

لماذا إذن .. ؟؟

هنا يبرز « حفظ التوازن » بمضمونه الخبيث ..

وهنا يتجلى المفهوم الصحيح لاصطلاح « الدول الكبرى » كما تفهمه
وكما تريده بعض الدول الكبرى .

فالصين الشعبية ، أدخلت بحفظ التوازن الاقتصادي للولايات
المتحدة ..

والصين القوية ، أدخلت حفظ التوازن السياسي في آسيا بالنسبة
للولايات المتحدة أيضاً ..

وإذن ، فليس جزاؤها أن تحرم صفة الدولة الكبيرة لحسب ..
بل أن تحرم أدنى حقوق وجودها السياسي فلا تكون عضواً في هيئة
الأمم التي تضم جميع الأمم .. !

* * *

منذ القرن التاسع عشر ، وأمريكا تحافظ على الصين ، وتدفع عنها
كل غزو .

وحين نطالع تاريخ السياسة الخارجية للولايات المتحدة في ذلك القرن وما بعده ، تستوقفنا ظاهرة هامة هي إصرار الولايات المتحدة على مقاومة كل محاولة للسيطرة على دول أمريكا الجنوبية .. وعلى الصين ..

وهذا الموقف واضح بالنسبة لأمريكا اللاتينية ، باعتبارها امتدادا طبيعيا للوحدة الأمريكية الشاملة ..

لكن ماسر هذا الاهتمام العظيم بالصين ؟ ..

أجل .. لقد رُسمت السياسة الأمريكية في آسيا على أساس حفظ الصين من كل تدخل .. وعلى أساس الأجهزة على اليابان كدولة متفوقة صناعياً وعسكرياً .. !!

فلنحاول أن نفهم هذا اللفز العجيب ..

إن الصين سوق هائلة إذا أحسن إنعاشها وإذا ظلت بعيدة عن الارتباط بمُصدِّرين آخرين مثل بريطانيا وفرنسا مثلاً حتى يأتي دور أمريكا .. فإن ذلك يكون خيراً عظيماً للاقتصاد الأمريكي ..

واليابان دولة أسيوية ، ومتاخمة للصين .. فإذا نهضت عسكرياً وصناعياً .. سبقت أمريكا إلى هذه السوق وحرمتها منها ..

هذا من جانب ..

ومن جانب آخر .. فأمریکا لا تقبل أن تقوم في المحيط الهادى
في الشرق الأقصى - أمريكا أخرى - أسويوة . ، تضارعا أو تكون
يوماً ما مصدر خطر عليها سواء كان هذا الخطر عسكرياً أم اقتصادياً .

ومن هنا ، قبلت ، بل عملت على أن تكون صين د كلئ شيك .
دولة كبرى .. مع فقدانها لكل خصائص الدولة الكبرى . . ورفضت
أن تكون الصين الشعبية مجرد عضو في هيئة الأمم ، مع تمتعها بمعظم ،
بل بكل خصائص الدول الكبرى . . ١

وبقيام نظام اشتراكي في الصين ، أفلت من التجارة الأمريكية
ستائة مليون زبون .

أليس هذا كافياً لفقدان التوازن .. وكافياً بالتالى لاضطهاد الصين
إنقاذاً لما يمكن إنقاذه من حفظ وحفظ التوازن ، ... ١١١٩٩

هناك صحفى أمريكى شهير اسمه د ارنست لندلى ، كان وثيق الصلة
بالبیت الأبيض أيام د روزفلت . .

ولقد كتب يقول :

د لقد كان المستر روزفلت يذهب دائماً إلى أن الصين ،
د - يقصد الصين القديمة - يجب أن تعامل كدولة ،
د من الطبقة الأولى وأنها ستكون في مدى جيل ،
د أو جيلين من دول الطبقة الأولى بالفعل

ومعنى هذا الكلام من روزفلت ، أن الولايات المتحدة كانت تبني تقديرها على أن الصين ستظل بحاجة إليها وإلى صناعاتها وإنتاجها مدى جيل أو جيلين .

ولكن ما حدث عام ١٩٤٩ ، من اختفاء آخر ظلال الصين القديمة ، وقيام حكومة اشتراكية في الصين كلها خيب الآمال . . ودعا أمريكا إلى شد زناد حفظ التوازن شدا غير مأمون العاقبة .

ويمكن أن نلتبس تفسيراً آخر لموقف أمريكا من الصين واليابان . . فنقول : إنها ناهضت اليابان لعدوانها ونزعاتها الاستعمارية . . وإنها عاشت تدفع عن الصين كل غزو خارجي ، تمشياً مع مبادئ الإنسانية التي خلفها لها واشنطن ، ولنكولن ، ومونرو ، وولسن . .

أقول : يمكن أن نلتبس مثل هذا التفسير ، بل بودنا أن نلتبسه ، لو تستطيع الولايات المتحدة أن تقدم تفسيراً معقولاً لموقفها من الصين الشعبية اليوم . . وإبطالها كل محاولة لضمها إلى هيئة الأمم المتحدة .

* * *

نحن لا نكتب هذا للتجريح . . ولا يخطر ببالنا ونحن نسطر

كتاباً يهتف بالأغاء الإنسانى أن نخط كلمات تحمل الضغن ،
أو تريد الإساءة ..

ولكن مواجهة الوقائع التاريخية أمر ضرورى لكل محاولة صادقة
تريد إخراج عالمنا من أحقادته وخلفاته .

* * *

لقد كان ينبغي بعد قيام « هيئة الأمم المتحدة » ألا يبقى
فى العالم سوى دولة كبرى واحدة ، هى « الأمم المتحدة » نفسها .

لست أعنى أنها ستحول إلى دولة ، بكل مقومات الدولة .. بل أعنى
أنها كنظمة . يجب أن تأخذ وحدها المكان الاول والأعلى ،
ويجب أن تنتقل إليها كافة حقوق السيادة العالمية ، لتتقرب بنا
من أيام الخلاص .

أما أن تقوم « أمم متحدة » .. ثم تنهض إلى جوارها ، بل ومن
فوقها « دول كبرى » فإن مصالح هذه الدول الكبرى ستفرض نفسها
على هيئة الأمم ، ولقد حدث هذا عشرات المرات .

فالأمم المتحدة - عجزت عن وقف اغتصاب فلسطين وتشريد
أهلها . لأن « دولاً كبرى » أرادت هذا .. !

والأمم المتحدة - عجزت عن إفساح مكان لستائة مليون صينى .

— ٨٦ —

لأن «دولا كبرى» أرادت هذا . . ١

والأمم المتحدة - لم تمنع ضرب كوريا . . بل ساهمت فيها . ٢
لأن «دولا كبرى» أرادت هذا . . ١

والأمم المتحدة - لم نستطع حتى اليوم أن تمنع سباق التسلح . ٢
لأن «دولا كبرى» تريد هذا . . ١

ليس يخطر ببالنا أن نضائل من قيمة الأمم المتحدة بسبب هذا العجز . . ولسنا ننسى المواقف الجليلة الباهرة التي أملت فيها مشيئتها . .
ولكننا ندرك أن خضوعها - أحيانا - لتأثير بعض الدول الكبرى ، يعتاق الكثير من جهودها البار، ويعطل الكثير من رسالتها الجليلة .

وهذا ما نعينه وما نحاول دحضه عنها .

* * *

وثمة خطر آخر يفضي إليه قيام دول كبرى . . ذلك هو : التسابق في التسلح . .

يجب أن ندرك جيداً - أن المؤتمرات غير كافية في وقف التسلح . .
فللتسلح مقدماته التي تجعل منه نتيجة المحتومة . . ومن هذه المقدمات

وجود نظام عالمي يسمح بقيام « دول كبرى » ..

فعلى رأس الخصائص الدولة الكبرى - يقف التفوق العسكري .

وكل دولة تريد أن تكون كبرى ، تعلم أن اليقين أن ذلك رهن بتفوقها في أسلحة الفتك ، وبناء الأساطيل ، وإعداد الجيوش .

هذه بديهية لا تحتاج إلى بيان .

ولقد عبر عنها أصدق تعبير « ونسن تشرشل » في كتابه « الأزمة العالمية » حيث يصف زيارته لبورتلاند ، وانهاره بسفن الأسطول البريطاني هناك :

يقول « تشرشل » :

« على هذه السفن العظيمة ، رأيت شوكة الامبراطورية ،
البريطانية وجلالها ، وسيادتها ، وقوتها »

ثم يقول :

« افتحوا صمامات البحر .. ودعوا هذه السفن تغرق ،
« تحت الماء .. وفي بضع دقائق .. في نصف ساعة ،
« على الأكثر ، يتغير وجه العالم ، وتتلشى ،
« الامبراطورية البريطانية كحل .. ، وتتحطم قوة ،
« سيده البحار »

وعبر عنها « هتلر » حين قال :

« يجب أن نسبق العالم كله في التسليح إذا أردنا أن »
« نحقق عظمة الأمة الألمانية »

وعبر عنها « موسوليني » بكلمته المشهورة التي ألقاها من فوق
« فوهة مدفع » .. وهى :

« الويل للأمم غير المسلحة »

والتاريخ يمدنا بكل الوقائع والشواهد التي تقنعنا بأن قيام « دول
كبيرة » لا يمكن أن ينفصل بحال عن التسابق الجنوني في التسليح ..

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها - عرض «ولسون»
نقاطه الأربع عشرة المشهورة .. وكانت النقطة الثانية منها - حرية
البحار - ووقفت بريطانيا تناقشها طويلا . مما اضطر مستشار ولسن
أن يعلن أن الولايات المتحدة لن تسلم عن طيب خاطر بسيادة بريطانيا
على البحار .. كما أنها لا تسلم بسيادة ألمانيا في البر ، وإذا أصرت
بريطانيا على سيادة البحار ؛ فإن أمريكا ستبنى أسطولا ينتزع
السيادة منها ...

أبلغت حكومة لندن هذا التوضيح ؛ فثارت ثائرتها ، ووقف
رئيس وزراتها « لويد جورج » يقول .

« إن بريطانيا العظمى ستنفق آخر جنيه لديها للاحتفاظ »
« بأسطول يفوق أسطول الولايات المتحدة .. أو أى »
« دولة أخرى . وليس فى وسع أية وزارة بريطانية »
« أن تبقى فى الحكم يوما واحداً . إذا هى اتخذت »
« موقفا مغايرا »

* * *

إن أمريكا - الدولة الكبرى - يجب أن يكون لها أسطولها الكبير
وعتاها الكبير ..
ومن ثم سارعت فى غير كلل وفى غير بخل ، لبناء الأساطيل ،
ولإنتاج العتاد ..
واليابان ، - الدولة الكبرى - يجب أن يكون لها أسطولها ،
وعتاها ..
وهكذا سارعت هى الأخرى تسابق بريطانيا نفسها حتى صار
لها أسطول يماثل أسطولها .
وفى عام - ١٩٣٨ - ألقى رئيس الاتحاد السوفيتى « كالينين »
خطابا فى إجتماع عمال السفن بمدينة ليننجراد ، قال فيه ..
« حتى اليوم ، لم تتفوق ، دولة على بريطانيا ويجب »

— ٩٠ —

« علينا أن تتفوق عليها »
« إن إنجلترا ، أقوى بلد رأسمالي ونحن أقوى بلد ،
« اشتراكي إننا سندخل في منافسة مع أقوى الدول ،
« الرأسمالية . وكل منها يمتلك أساطيل كبرى . . .
« فعلينا أن ننشئ أسطولا يتفوق على أساطيلها ،
« جميعاً »

وأعلن مولوتوف :

« أن الدولة السوفيتية القوية ، يجب أن تملك ،
« أسطولا بحرياً جديراً بقضيتها الكبرى وبمصلحتها ،

وقام « الاتحاد السوفيتي » فعلاً بإنشاء وزارة للأسطول . .
ولم يطل هلال عام ١٩٣٩ حتى كانت روسيا تملك من الفواصات
أكثر مما تملك ألمانيا ، واليابان معاً . .

لقد فرضت تبعات التفوق نفسها على الدول الكبرى جميعاً . .
فأمريكا ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وإيطاليا ، واليابان . .
تتنازع الصدارة والسيادة ، ومقتضى هذا أن تبرز كل منها أقصى
تفوق عسكري ممكن . .

والإتحاد السوفيتي الذي يقف يومئذ وحده تجاه كل هذه الترسانات
الكبرى ، يجب أن يبرز أقصى تفوق عسكري ممكن . . ؟ ؟

وبهذه الطريقة ذهب ، ولا يزال يذهب من الأموال ما لو أنفق سدسه على تعمير العالم ، لجعل من أرضنا هذه فردوساً بهيجاً . . .

إن من المؤسف حقاً ، أن نتقبل نظام الدول الكبرى ، كما لو كان ضرورة تاريخية . . . وأن نسكت عنه ، كما لو كان خيراً وبركة .

ونحن لا نسكت عنه فحسب ؛ بل نحاول تنمية وتضخيمه بيناء كتل نسيطر على كل منها دولة كبرى .

لقد أراد كاتب أمريكي كبير هو د والتر ليبان ، أن يعالج السلام العالمي ، فدعا إلى تقسيم العالم إلى جماعات ومدارات . .

ففي كتابه د الولايات المتحدة وذاياتها من الحرب ، وقد نشره ملخص كامل باللغة العربية يدعو د ليبان ، إلى إنشاء د جماعة الأطلسي ، و د جماعة المدار الروسي ، و د جماعة المدار الصيني . .

ولقد اقتنعت حكومة الولايات المتحدة بدعوته ، وأنشأت د حلف الأطلسي .

وهو يرى أن صلات الود والتعاون بين الجماعات الثلاث ، أو المدارات الثلاثة ، مدار الأطلسي ، والمدار الروسي ، والمدار الصيني . . كفيل بتوطيد أركان السلام .

وهو يصرح كذلك بأن مدار الأطلسي ستزعمه دولة كبرى
هى أمريكا . .

وتزعم المدار الروسى دولة كبرى هى : روسيا .

وتزعم المدار الصينى دولة كبرى هى : الصين .

ولاندرى : هل لا يزال عند رأيه بشأن « المدار الصينى » ، بعد قيام
الصين الشعبية ، أم لا ؟ . . لا ، لا .

مثل هذا التفكير الذى أعلنه أكبر كتاب أمريكى السياسيين ،
والذى يؤثر تفكيره فى السياسة الخارجية للولايات المتحدة تأثيراً
ملحوظاً . . . مثل هذا التفكير لا يزال يسيطر على الإدراك السياسى
لكثرة كثرة من سكان الأرض . وليست خطورته فيما ينطوى عليه
من خطأ فحسب ، بل وفى إضعاف الثقة بالمنظمات العالمية التى تحاول
البشرية عن طريقها أن تضع حداً لمآسيها ومصائبها .

فى ١٥ يونية عام ١٩٤٤ ، صرح الرئيس « روزفلت » ، أنه يعتمد
فى صيانة السلام على :

« قوة مادية منظمة طيبة عالمية تسيطر عليها ،

« الدول الكبرى »

وكانت الدول الكبرى يومئذ هى : الولايات المتحدة - والاتحاد

السوفييتى - وبريطانيا - والصين الوطنية . .

— ٩٣ —

وصرح « روزقلت » يومها بأن الدول الكبرى التي ستسيطر على الهيئة العالمية ، تكون بمثابة « بوليس السلام » . . . وأما بقية أمم العالم ، فهي الشعب ، أو الجمهور الذي ينظمه هذا البوليس . . .

وقبل هذا بعام واحد - أعني عام ١٩٤٣ - اقترح وزير بحرية أمريكا لصيانة سلام العالم ، أن تقسم أمريكا وبريطانيا بحار الدنيا . . .

يتولى الأسطول الأمريكي حراسة غربي المحيط الأطلسي ، والمحيط الهادى بأسره . . .

ويتولى الأسطول البريطانى حراسة المحيط الهندى ، والبحر الأبيض المتوسط ، وشرقي المحيط الأطلسي . . .

هكذا تفقد نظرية « الدول الكبرى » إلى التخطيط الشديداً الأكد ..
وفي الوقت الذى يحسب محتقوها أنهم يصونون السلام ، يكونون موهلين فى الأسباب التى تقوض السلام .

ولو أن الحرص على زعامة الدول الكبرى يأتى فى المرتبة الثانية من محاولاتنا لصون السلام ، لكان الأمر بعض الشيء ..

أما أن يضعه أصحابه فى المرتبة الأولى ، فهذا ما يجعل تفنيده ودحضه واجبا محتوما .

- ٩٤ - .

لقد اعتمدت السياسة الدولية على نظام «الدول الكبرى» ، من مؤتمر فيينا عام ١٨١٤ ، حتى الحرب العالمية الثانية .. فاذا كانت العاقبة ؟ ..

كانت حروبا موصولة .. وظلما ، وبغيا ، واستعماراً .. وكانت الدول الكبرى .. بمناطقها وتكتلاتها ، عصابات خطيرة ملأت الأرض ، خرابا وبغيا .. أفنعاود الكرة بعد كل تلك المثالات .. ؟ ؟

أفترك الأوضاع هكذا .. دول كبرى تقود ، ودول صغيرة تقاد ؟ ..

لا .. وإن من أهم واجبات عالمنا الحديث أن يصفى هذا النظام تصفية كاملة . وأن يستقبل عصوراً جديدة لا تكون السيادة فيها للدول الكبرى .. بل للدول جميعا .. للبشرية جميعا .

* * *

نرى ، هل يعنى حديثنا هذا ، تجاهل الظروف الحضارية التي تجعل ن بعض الدول - دولا كبيرة أى متفوقة تفوقا حضاريا .. وأخرى صغيرة .. أى بادية في الأخذ بأسباب الحضارة ؟

كلا . ييقين ..

— ٩٥ —

ولسنا ننكر أبداً فضل بعض الأمم على بعض .. وسبق
بعضها لبعض ..

وإنما ننكر « المفهوم السياسى » لوضع الدول الكبرى ..
هذا المفهوم الذى يعنى أوضاعا خاصة ، وامتيازات خاصة ،
وحقوقا خاصة ، لهذه الدول المنعوتة بالكبرى ..
والذى يعنى بالتالى تقسيم العالم إلى سادة ، وتابعين .. إلى
أوصياء ، وقاصرين ..

مَحْمَدَةُ الضَّمِيرِ السِّيَاسِي

خلال الظروف التاريخية التي أسلفناها ، تشكل ضمير سياسى مراوغ ،
ومريض .

ضمير تغذى بجميع الافرازات الضارة التي أفرزها تكالب المال .
ومياسة الأحلاف ، وتشدان المآرب الخاصة .

لم يتح للضمير السياسى أن يؤدي واجبه تجاه المبادئ الانسانية
الرشيده التي اكتشف الانسان قيمتها ، وأهميتها . وانحرفت به ظروف
تكونه شطر الكذب ، والغدر ، والوصولية . تلك العناصر الاساسية
للسياسة العالمية من عهد بعيد .

نحن نؤمن بتقديم الانسانية ، ونؤمن بأن البشرية تسير إلى الأمام ،
وإلى الأفضل دوما .

لكن ذلك لا يعنى أنها مبرأة من الآفات والنقائص ، كما لا يعنى
أن ندفن رموسنا في الرمال حتى لا نرى تلك الآفات .

إن مواجهة الخطأ جزء من الصواب . وإدراك ماهو سىء يمثل
الخطوة الأولى للظفر بما هو حسن .

وإذا كانت البشرية تتقدم دوما على الرغم مما تمتلئ به حياتها
من مشبطات ومساوىء . . فكم سيكون تقدمها عظيما وباهرا ، إذا
نقضت عن نفسها الكثير من تلك المشبطات .

والضمير السياسى العالمى ، لإحدى القوى العاملة في الحياة الانسانية

وإن له لمواقف طيبة تغرى بالاعتماد عليه في تقويم كثير من العوج .. ولكنه يعمل بمعشار طاقته لا غير .. لأنه لا يزال مكبلاً بكثير من رواسب الأزمان الخالية .

لقد حاق من به مؤامرات التجارة ، والأحلاف ، والدول ذات السيادة والعلو . ما أشقاء وجرفه إلى الضلال . ولكننا حين نستطيع تنقيته من تلك الرواسب ، وحين تظهر السياسة نفسها من أكاذيبها ، وضلالها ، فإن هذا الضمير يقدر حينئذ على الاسهام في بناء رأى عام عالمي ، يصون قيم حضارتنا ، ويؤمن مستقبل توعنا .

* * *

وعلى طريقتنا في الفصول السابقة ، سنحاول هنا أن نكشف عن انحرافات الضمير السياسي ، لنرى مبلغ ما يحدثه في تقدمنا من تخريب . وسنسير أيضاً عبر التاريخ الحديث ، لنرى كيف تشابهت ألاعيب السياسة ، وبهتانها ، وكيف تكرر نفسها في مجالات السطو ، والغرور . وكيف تعاون الضمير السياسي المريض ، مع رأس المال ، ومع الأحلاف على استعمار الشعوب ، وتشقيت الصف البشري .

* * *

• في - عام ١٨٦٣ - نشبت ثورة بولندا الكبرى ضد قيصر روسيا ، ووقفت أوروبا قويد الثورة .. لكن « بساك » وقف في نشوز

عجيب يؤيد القيصر ضد شعب بولندا ، وضد ثورته ، وضد حقوق الانسان كلها . حتى لقد سمح لجيرش القيصر أن تخترق بلاده « روسيا » متعقبة الثوار الذين هربوا إليها .

أما لماذا وقف « بيسارك » هذا الموقف ، فهذا نلتقي بمأساة الضمير السياسي لأوروبا .

لقد كان « بيسارك » يعد نفسه سرّاً لغزو النمسا ، ومن بعدها فرنسا وهو يريد أن يأخذ إلى جانبه قيصر روسيا ، لكي يرجع هاتين الحربين .

من أجل هذا رأى أن يُسلف للقيصر جيلاً كبيراً هو تعضيده في إطفاء ثورة شعب يطالب بحريته . .

فالحرية ، والحق ، والعدل ، وكل حقوق الانسان ، مسائل ثانوية بالنسبة لبيسارك ، وبالنسبة للضمير السياسي المنحرف . .

ولقد حدث مارسم بيسارك خطته . . حين هاجم النمسا وقف القيصر معه . . ووقفت إيطاليا أيضاً معه ، بعد أن وعدّها بالبندقية .

وفي هذه الحرب كذلك ، وقف يبارك احتلال فرنسا لتونس ، ويشجعها عليه ، لأنه يعلم أن احتلالها لتونس ، سيخطط عليها بريطانيا . . وراح يشجع بريطانيا على احتلال مصر ، لأنه يعلم أن هذا يخطط عليها فرنسا . . وهو يعلق على خلافهما آمالاً كباراً . !

وبعد أن ينتهي من حرب النمسا وهزمها ، يتجه شطر فرنسا ،

ويهزمها هزيمة ساحقة .. ولكنه قبل أن يبدأ الحرب معها يغرى
النمسا بالزحف إلى البلقان ، ويعدها بالمساعدة . وذلك كي يتقن احتمال
هجومها عليه أثناء حربها مع فرنسا . ١١ .

هذا هو الضمير السياسى الذى قاد قافلة السياسة ، حاملا لواء الأناثية
المسعورة ، والغدر الرخيص . ١

* * *

ونمة مثال آخر ، كله عبرة وحكمة ، هذا المثال هو « حرب القرم »
ذات يوم ، أرادت روسيا القيصرية أن تحقق أطماعها فى تركيا ..
وبحثت عن سبب يبرر عدوانها التى وضعت خطتها ، فماذا كان السبب ؟
لقد أعلنت أنها ذاهبة إلى تركيا ، لحماية المذهب الأرثوذكسى ،
الذى تدين به جماعات كثيرة فى الدول العثمانية . ١
ورأت « فرنسا » أن تدخل روسيا باسم الدين قد نبجح وآتى ثمره ،
فقررت أن تأخذ نصيبها من الغنيمة .
ولكن بأى حجة كاذبة تتدخل ، وتعتدى - ؟ ؟

المسألة سهلة ١١ ..
إن روسيا تدخلت لحماية الأرثوذكس .. فلتتدخل فرنسا لحماية
الكاثوليك ١١ ..

وهكذا تقدمت إلى تركيا بمذكرة ضافية ، ضمنتها ، أن « هرون

— ١٠٣ —

الرشيده ، كان قد سلم مفاتيح المسجد الأقصى إلى «سارلسان» . . كما أن «سليمان القانوني» اعترف لحليفه يومئذ «فرنسوا الأول» ملك فرنسا . بحق فرنسا في حماية كاثوليك الشرق العربي كله . . . ١١١

بقيت بريطانيا ، فماذا هي صاعقة ؟

لم تضع بريطانيا وقتها . . ١٠٠٠ ، وإذا كان هناك أرثوذكس تحميمهم روسيا ، وكاثوليك تحميمهم فرنسا ، فهناك بروتستانت ، ينتظرون حماية أمهم بريطانيا . . ١١٠

وهكذا تقدمت إلى السلطان عام ١٨٤٠ - طالبة الأذن ببناء كنيسة بروتستانت في القدس .

ولننظر كيف سارت المهزلة فيما بعد . . .

لقد أوحى كل دولة من الدول الثلاث إل القساوسة والرهبان التابعين لمذهبها ، بأن يشاغبوا قساوسة وrehبان المذهبين الآخرين .

وبدأت الفتن تنشب بين قساوسة المذاهب الثلاثة ، بالقدس ، الأرثوذكس ، والكاثوليك ، والبروتستانت . . وجاءت الخطوة التالية . .

فتقدمت روسيا إلى تركيا ، متهمة إياها بتحريض الكاثوليك والبروتستانت على رعاياها الأرثوذكس . . وعليها إذا أرادت

أن تثبت حسن نيتها ، أن تسلم فوراً مفاتيح كنيسة المهد في بيت لحم إلى الرهبان الأرثوذكس ١٠٠ .

واقتربت فرنسا ، فأرسل نابليونها الثالث ، تهديداً مباشراً إلى تركيا - إن هي أجابت طلب روسيا ، وإذا هي لم تكف عن اضطهاد رعاياها الكاثوليك « ١ »

وأما بريطانيا ، فوقفت تمارس دورها المعروف . . فتمرض سلطان تركيا على روسيا وفرنسا . . وتمرض روسيا وفرنسا على تركيا - حتى نشبت حرب القرم المعروفة ١٠٠ .

في هذه الحرب ، بتكشف الضمير السياسى ، وتبدو حقيقته الشائنة . . حتى الدين الواحد يستغل أبشع استغلال وتمزق أواصره بين أبنائه على هذا النحو الردى . ، من أجل الحصول على صفقة استعماريه هي « تركيا » ١١٠٠

ولم تستكشف الدول التي كانت تزعم الديانة المسيحية - وهي روسيا ، وبريطانيا ، وفرنسا . . لم تتورع هذه الدول عن تدنيس يديها بتمزيق أواصر الشعب المسيحى نفسه ، وتخريض كاثوليكه على أرثوذكه . . ما دام ذلك سيلا إلى مطمع غير مشروع ١١١٠٠ ترى هل اختلف الضمير السياسى في منتصف القرن العشرين عنه في القرن التاسع عشر ، قرن بسمارك ، وحرب القرم ١٩٠٠ ؟

- ١٠٥ -

الكي نعرف ، علينا أن نستعير بعض الشواهد من الأس الرطيب
والقريب . . بل من الأيام التي نعيشها . .

في عام ١٩٣٣ ، تلم زمام الحكم في ألمانيا دكتاتور عنيد أحق ..
لم يسكد ساعده يشتد حتى أخذ يهوى على الدول الصغيرة يستعبد لها
ويسرقها ، وحتى أخذ ينادى بألمانيا فوق الجميع ، ويعد لحرب عالمية ،
تنهى بسيادته ألمانيا . .

كان الموقف السليم للدول التي تزعم أنها ديمقراطية ، وحامية حمى
الديمقراطية ، أن تَجْنبه هذا الغرور في بدايته . .

ولكن الضمير السياسى المريض تخلى عن المبادئ الخيرة ،
فتخلت عنه العافية ، وتخلت عنه الرشدة . . هذا الضمير دفع
الديمقراطيين الكبار « ١ » بريطانيا وفرنسا إلى عمالة هتلر ، أولا -
وموسوليني ثانياً عمالة حصد العالم كله شوكها فيما بعد .

* * *

● لقد اجتاحت هتلر د حوض السار ، ذات صباح ، أو ذات
مساء . . وفي استخذاء شديد ، ذهبت بريطانيا ووقعت معه معاهدة
سرية « ١ » .

و ذات صباح ، أو ذات مساء آخر - سطا على تشكوسلوفاكيا بعد
أن ازدرد قلبها النمسا .

أتدرون ماذا حدث . . ١٩٤٠ .

لقد أرسلت الحكومة البريطانية « اللورد نسمان » إلى الحكومة التشيكية في مهمة دبلوماسية ، وأذيع يومئذ أن مهمته تتمثل في تنظيم مقاومة هتلر ، مع تشكوسلوفاكيا . . ثم اتضح أخيراً ، وبعد الحرب العالمية الثانية ، أن السيد « نسمان » ذهب باسم الحكومة البريطانية لكي ينصح حكومة تشكوسلوفاكيا - بالأذعان لكل مطالب هتلر . ! !

بقي أن نعرف أنه قبل غزو تشكوسلوفاكيا ببضعة أشهر . . ألقى
المر هتتر خطاباً سياسياً قال فيه :

« إن من أكبر الكوارث ، أن تخلي إنجلترا عن »

« استعمارها للهند ! ! ! »

معتدون يتعامل بعضهم مع بعض ، وضمير سياسى فقد كل مقومات
الضمير الحر الرشيد . .

● وعندما اجتاحت « موسوليني » بلاد الحبشة . . ماذا كان دور
هذا الضمير . .

اجتمع « صمويل هور » وزير خارجية بريطانيا مع « لافال »
وزير خارجية فرنسا - وأعلننا اعتراف دولتيهما بشرعية الاحتلال
الإيطالى لجزء كبير من الحبشة . . ١١

● وفى عام - ١٩٣٦ - اجتمع الشعب الأسباني فى انتخابات -

حرة ورفع إلى مقاعد الحكم أعضاء الجبهة الشعبية .

وكان الاقطاع الأسباني يلتهم مقدرات الشعب في أمعاء يس لها قاع ، ولا قرار .

وكان هذا الاقطاع في يد الكنيسة الأسبانية التي كان أكثر رجالها يقفون وراء الرجعية في بلادهم .

لهذا ، كان من الطبيعي لتصفية الاقطاع الذي قررت حكومة الشعب تصفيته - أن تواجه الكنيسة رغم جبروتها .

ولقد بدأ هذا فعلاً . . وأخذت الإصلاحات الهائلة تتحقق . . وإذا الأرض تنشق فجأة عن «فرانكو» . . فيقود حركة بل ثورة ضد حكومة اختارها الشعب ، وتقوم بإصلاحات يريدتها الشعب «ا» . . أي ان ثورة «فرانكو» كانت ثورة ضد الديمقراطية ، فإذا لم تعاونها دول الديمقراطية ، فلا أقل من ألا تصار بها .

ومع هذا فانظروا ماذا حدث .

لقد انهارت المساعدات العسكرية من الفاشية الإيطالية ، والنازية الألمانية على حليفهما فرانكو . .

أما بريطانيا وفرنسا الديمقراطيتان ، فقد اتخذتا موقفاً أسمياً «سياسة عدم التدخل»

وكان هذا موقفاً تنكرياً . . أما في الحقيقة ، فقد تدخلنا لصالح فرانكو .

ذلك أن بعض المعونات أخذت تقد على حكومة الشعب الديمقراطية من الخارج . . فأوعزت بريطانيا لفرنسا كي تغلق حدودها عند جبال البرانس حتى تقطع الطريق على تلك المعونات . . . هذا سلوك الضمير السياسى فى عالمنا . . . سلوك ، يقدم المنفعة على المبدأ . . والخوف على الواجب . . . والباطل على الحق . .

سلوك سببه « تقوقع » الضمير السياسى داخل دائرة ضيقة من مصالح خاصة ، ونزعات عنصرية . . وهكذا اختفى الضمير الإنسانى رويدا رويدا . . وأخذ مكانه الضمير السياسى المتعصب الكذوب .

ولو أن الضمير الإنسانى لم يخف ويختنق فى زحمة الأطماع . . لو أنه بقى مكانه يقودنا ، ويمسك بمصائرنا لامتنع قيام الحروب . .

أجل . . . لو أن اليابان حين استولت على منشوريا عام ١٩٣١ - وجدت الضمير الإنسانى متمتعاً بسلطاته ، متحدية عدوانها - لما غزا موسوليني الحبشة عام ١٩٣٥ . .

ولو كان الضمير الإنسانى فى مكانه ليزجر موسوليني عن غزو الحبشة - لما زحف هتلر على أرض الرين عام ١٩٣٦ ولما زحفت.

اليابان على الصين عام ١٩٣٧ ، ولما زحف النازي على النمسا وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٣٨ - ولما قامت بعد هذا ، وبسبب هذا ، الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ..

لكن الضمير الانساني لم يكن موجوداً .. وكان هناك الضمير السياسي الموبوء بوباء أوروبا ، والحامل لكل ميكروبات الاستعمار .

والدول المحتدية ، تعلم أن عكف هذا الضمير - هي المساومة .. وهكذا لكي يظفر هتلر - مثلاً - بسكوت بريطانيا على سرقاته .. ليس عليه إلا أن يعلن أن احتلالها للهند بركة ، وأن جلاءها عن الهند كارثة .. دا ،

ولو كانت مسيرة بريطانيا ، وفرنسا للفاشية والنازية ضرباً من ضروب التعاون الإنساني ، لكان عملاً طيباً ..

فقد بارك العالم كله هذا النوع من التعاون بين دول مختلفة النظم اختلافاً بعيداً .

في عام ١٩٤٠ خطب دروزفلت ، أمام الكونغرس الأمريكي فأعلن « أن مسافة الحلف واسعة جداً بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي » ..

ثم لم يمض عام واحد ، حتى كان الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة

يعملان معا وفي صف واحد ضد الغزو النازي .

لكن الذى حدث بين بريطانيا وفرنسا من جانب ، وألمانيا وإيطاليا من جانب آخرين . . لم يكن تعاوناً على الخير . . بل تبادلًا للنفاع المنهوبة .

ولقد انتقلت العدوى يومئذ إلى «عصبة الأمم» ، فلاذت بالصمت المريب تجاه كل العدوان الذى كانت إيطاليا ، وألمانيا ، واليابان تقوم به . . مما جعلها تعيش عمرها القصير . . وكالة حكومات ، لا جمعية أمم وشعوب . .

* * *

ومعنى هذا بدهة ، أن أية منظمة عالمية ، تنهض لحماية المصير الإنسانى ، ستصير عاجزة حتى عن حماية نفسها ، ما دام الضعيف السياسى العالمى . ، وفي خدمته كل القوى الشريرة التى تسانده ، قادرا على التسلسل إليها ، وعلى التحكم فيها .

إننا نعجب كثيرا لموقف «عصبة الأمم» بالأمس من حقوق الإنسان التى كانت تُهدر جهارا علنًا ، وهى ساكتة أحيانًا ، وشريكة فى الوزر أحيانًا أخرى . .

وتعجب لموقف «هيئة الأمم» اليوم من الحقوق الكثيرة المهددة

لبعض الأمم والشعوب . . ووراء هذا الموقف للعصبية والهيبة ، تقف
أزمة الضمير السياسى على رأس الأسباب التى تشر هذا الموقف الكئيب .

إن هناك - لاريب - سيطرة الدول الكبرى ، أو بعضها على
المنظمات العالمية . . وهناك نفوذ أصحاب المصالح ، وأقطاب الصناعة
والمال فى العالم .

ولكن ، كل هذه القسوى ، كان من المستطاع - نهضة الكثير من
شرها ، ولا أقول - كل شرها - لو أن الضمير الذى تستهدفه المنظمات
العالمية ، كان أكثر نقاء ، واستبسالا ، وأمانة .

لكنه ، ومن واجبنا أن نعترف بهذا فى غير موارد ، ضمير
مثقل بالضعف ، وبالآفات .

وهو لا يستطيع أن يكون إلا هكذا ، ما دام يعيش داخل ظروف
منحرفة ، وما دام يستمد غذاءه ، وهواه من تلك الظروف الآسنة
العكرة الخائفة . .

فما السياسة التى تغذى هذا الضمير ، وتُصَبُّ فيه . . ؟؟

لإنها - كما رأينا من الشواهد السالفة - كرتقال هائل مضحك
ومزعج معاً من الأكاذيب ، والأحاييل والمؤامرات .

وهى فى أظهر صورها - أن كان فيها طُهر على الإطلاق - انعكاس

للشكوك ، والخاوف ، والأطماع التي تنتاب الدول ، وتحكم في تفكيرها السياسي .

ومُنظمة عالمية ، تمثل قيام مجتمع إنساني واحد ، لا يمكن لها أن تحيا ، وتعمل ، وفي داخلها ضمير يتغذى بتلك السموم .

لقد عاش عالمنا الحديث على آلاف الوعود بأنه لا حرب . . ولا ظلم . . ولا استعمار . .

ومع هذا - فلم تكن قاعدة حياته إلا الحرب ، والظلم ، والاستعمار . . وكانت فترات السلم ، والعدل ، والحرية . . مجرد لحظات عابرة . . كأنها أخطاء تورطت السياسة فيها ، ثم لم تلبث أن تخلت عنها وعادت لتصحيح موقفها

ويحدث هذا - دوماً - لأن الضمير السياسي الملتاث هو القائد والرائد .

وليس شرمنا في المسئلة أن ضميراً مريضاً شريراً يتحكم في مقدراتنا ومصائرنا - بل أكثر من ذلك شراً ، غفلتنا ، وضعف إدراكنا للخطر الفادح الذي يمثله هذا الضمير .

لنا لانضع العين عليه ، كعامل من أكثر العوامل المخربة في صفوفنا البشرية - ومن ثمّ فلا نبذل جهداً لردّعه وتقويمه . . ومن ثمّ مرة

أخرى - فهو يعمل في حرية كاملة وطُمنانة أكيدة . .
في ميثاق الأمم المتحدة نص يلزمها بـ " اتخاذ تدابير مشتركة
للقضاء على كل ما يخل بالسلم " . .

ولكن . إلى جوار هذا النص الطيب ، نجد مبدأ يُحْتَمَّ " لإجماع
الدول الخمس الكبرى على كل قرار يصدر عنها " . .

كيف إذن يمكن اتخاذ تدبير مثا لحماية السلم والأمن إذا كان
المتهم لإحدى هذه الدول الكبرى .

وما سرّ هذا التناقض البين . . ؟

إنه الضمير السياسى ، الذى يعمل بأهواء عدة . . ويُناط به
التوفيق بين أطماع ومصالح متنافرة . .

والذى يُحاول دوماً وفى تحبط مستمر . أن يأكل الكعكة ، ويحتفظ
بها فى نفس الوقت . .

إنه إذا أحسنّا به الظن . . يريد أن يُوجد ظروف السلم ، بشرط
الابقاء على كل مغنم الحرب . .

* * *

إن آفة الضمير السياسى لنا ، تتمثل فى انفصاله عن قاعدته .
وقاعدته هى العالمية القائمة على أساس حقوق الإنسان . .

فحاشية الضمير ، وإقليميته دفعته إلى إعلان شأن الانانية والتعصب ،
وإلى تبرير كل الجرائم التي ثمرها الانانية والتعصب .

ويوم آمن هتلر بمخلفات أسلافه الألمان ، من شغفه وشبنجر . .
إلى بشارك وغليوم الذين هتفوا بالتفوق العنصرى للألمان . .

ويوم نفخ هو في هذه المشاعر . وأحاطها الى عقيدة فولاذية . .
ويوم ملا أفتدة الألمان بأنهم « فوق الجميع » ، ووعدهم بألف عام
يسودون فيها الأرض ، ويوجهون الدنيا .

يومئذ - كان الضمير الملتاث يُدبر في قساوة قاتكة أسوأ مصير .
للألمان ، وللعالم كله . .

وكذلك يوم تركزت مفاخر الإنجليز ، ومصالحهم ، وأبجادهم في
« امبراطوريتنا » .. تَنَكَّب ضميرهم كل حق .. ومجد كل باطل ..
وصارت كلمه دزرائيلي المشهورة . . « أوثر على حقوق الإنسان . .
حقوق الإنجليز » .. صارت هذه الكلمة شعارهم ودستورهم
وموضوع حياتهم .

والظلم الكبير . بل الأكبر الذي جُرِّع أهل فلسطين كشوسه
المريرة ، ما كان إلا ثمرة تمجيد الذات وتمجيد العنصرية ، والعمل داخل
فطاق الانانية البغيضة ، والقومية المقفلة .

وهكذا تتزاحم الأمثلة والشواهد ، متماثلة متشابهة ، لتضع أعيننا

على أخطر آفاتنا . . تلك هي انفصال الضمير السياسي عن قاعدته . .

لو أن هذا الضمير يحس المشاكل إحساساً شاملاً عميقاً ، وينبض بمصالح العالم مجتمعة . لا بمصالح قطاعات خاصة ، لجنّبت العالم كثيراً من الحروب ، وكثيراً من الفتن والاضطرابات .

ولو أنه كذلك يستهدى المبادئ الإنسانية العامة لبرئت أرضنا من الظلم ، ولترعرت فيها مباهج الحياة . .

* * *

إن انفصال الضمير عن قاعدته التي عرفناها فيما سبق ، لم يجعل السياسة العالمية أنانية وحسب . . بل جعلها ضرباً من الشعوذة والدجل ، يلبيس الحق بالباطل ، ويروض الناس على الشك في كل السِّيم والوقائع .

والشعار السياسي القائل : اكذب . . واكذب . . ثم اكذب دائماً ؛ فلا بد أن تجد من يصدقك ، . . هو التعبير اللفظي لأخطر عمليات الشعوذة السياسية التي أشاعت ، ولا تزال تشيع في عالمنا الاضطراب والقلق ، وفقدان الثقة .

كثيراً ما تلبس السياسة مسوح العدالة والخير ، فيخدع الناس لها ، حتى إذا حققت أغراضها الخبيثة ، أو كادت . . تكشف

زَيْفُهَا ، ولكن بعد فوات الأوان الذي كان مُناسباً لدخض
مناوراتها .

ومبادئ الحرية ، والحق ، والسلام ، ليست سوى مطايا ذُلُلا
تمتطيها السياسية لتحقيق مآربها .

في عام ١٨٢٢ ، تُوِّجَت بريطانيا بغار الشرف والمجد ، لأنها
أبْلَسَتْ بلاء عظيمًا في سبيل إقرار « مبدأ مونرو » القائل « أمريكا
للأمريكيين » ، والذي منع التدخل في الشؤون الأمريكية ، فنع بهذا
محاولة النساء حمل الدول على التدخل لقمع حركات التحرر ، وثورات
الاستقلال .

كانت البلاد الخاضعة للنمسا يومئذ تتفجّر رغبة في الاستقلال
والحرية . . وكانت هي تعقد المؤتمرات لتقرر عدم مشروعية هذه
الاتفاضات .

ووقفت روسيا ، وبروسيا ، وفرنسا - مؤيدة النساء . . بل
ومرسلة جيوشها إلى كل بلد ينادى بحريته ويهتف باستقلاله .

وبجاء وقت « بريطانيا » ضد حلفائها منادية بعدم التدخل
في شؤون الدول الداخلية . . وانهر العالم يومئذ بهذا الموقف ، وصاح
من فَرَطِ النشوة ، وروعة المفاجأة : « لقد هُدِيت بريطانيا » .
فهل تعرفون السر الذي كان وراء موقف بريطانيا هذا . . ؟؟

لقد كان للنمسا مستعمرات كثيرة في أمريكا الجنوبية . .
 وكان بعض هذه المستعمرات ، قد بدأ الثورة ضد استعمار النمسا . .
 فمبدأ « التدخل » الذي تنادى به النمسا ، سيمكنها من إطفاء هذه
 الثورات . . ومبدأ « عدم التدخل » الذي تنادى به بريطانيا سيجعل
 النمسا تقف وحدها أمام الثورات المعادية لها ، والتي اندلعت
 في كل أنحاء امبراطوريتها . .

وبritانيا حريصة كل الحرص على ضعيفة النمسا وإضعافها ،
 وأيضاً على طردها من أمريكا الجنوبية . .

وهكذا تبنّت مبدأ « عدم التدخل » باسم حقوق الإنسان
 طبعاً . . « ا » ووقف وزير خارجيتها « كاتنج » يُعلن في إنسانية مفضضة
 أن « بريطانيا الدستورية الحرة » ، ليس من صالحها مساندة الرجعية ،
 والملوك المستبدين . . « ا » ، وأوعزت بالفعل إلى « مونرو » رئيس
 الولايات المتحدة يومئذ ، كي يعلن أن « أى تدخل أوروبى في أية بقعة
 من أمريكا ، ستعده أمريكا عملاً عدائياً ، وستقاومه ولو بالحرب » . .

وهكذا انتصرت بريطانيا ، وساد مبدأ « عدم التدخل » سيادة تامة .

والآن ، فلننظر بقية النبأ ، فإن فيه من الطرافة . قدر ما فيه
 من العظة .

عندما جاءت الحرب العالمية الأولى ، كانت أمريكا . . لا تزال

سائرة على مبادئ « مونترو » .. لا تتدخل في شئون أوروبا ، ولا تتدخل
أوروبا في شئونها .. هذا المبدأ الذى أقنعتها به بريطانيا ، وحلتها عليه
عام « ١٨٢٢ » ..

أقتضل أمريكا بعيدة عن هذه الحرب العالمية .. ؟

لأنها إن فعلت ، كان ذلك نكبة على بريطانيا التى تتوقع هزيمة
كبيرة إذا لم تحفّ أمريكا بأمكنياتها لنجدها ومشاركتها الحرب ..

ولكن « مبدأ عدم التدخل » لا يزال قائماً .. وبريطانيا هى صاحبة
الفضل فيه ، فماذا تصنع .. ؟ ؟

إن السياسة ، والسياسة البريطانية بصفة خاصة لا تعرف المبادئ ..
إنما تعرف المصالح .

واقدر كان مبدأ مونرو حميداً ، يوم كان يحمى مصالح بريطانيا
أما اليوم ، وفليسقط مبدأ مونرو ، ودلت على مصلحة بريطانيا .. ،

وهكذا أخذت بريطانيا تتوسل بكل دهاتها لهدم ما بنته بالأمس .
وتجعل من مبدأ عدم التدخل خيانة لحقوق الإنسان ، وجريمة فى حق
أمريكا نفسها ، بعد أن كان أقدس الواجبات . ؛ فأوعزت إلى الصحافة
الأمريكية ، وكل أجهزة الدعاوة والاثارة لتنادى بأن .. عدم التدخل ،
هروب وانتحار .. وأن هزيمة بريطانيا فى الحرب ، ستكون هزيمة
لأمريكا ، لأن الديون الهائلة التى تدين أمريكا بريطانيا بها ، ستضيع

مع هزيمة بريطانيا . . . ولما انتصرت في روسيا ثورتها الشيوعية عام ١٩١٧ ، وقررت حكومة « لينين » الانسحاب من الحرب وجدت بريطانيا الفرصة سانحة لإزالة الرعب - كل الرعب - في قلب أمريكا ، وأقنعتها بضرورة التدخل ، فدخلت الحرب يوم ٦ أبريل عام ١٩١٧ . . . إن هذا المثال يتكرر في الدنيا كل يوم . . ونُبصر دولا تنادى بالمبادئ الإنسانية السامية . . ونبصر سياسة يتخذون مواقف ، ظاهرها السموم ، والبطولة الإنسانية ، والجلال ؛ ثم هي منظوية على تقيضها تماماً . .

كما نبصر مواقف يتّسم ظاهرها بالإخلاص لحقوق الإنسان ، وهي في حقيقتها مؤامرة محبوكة وخبيثة لقمع هذه الحقوق وتضليل مسعاهها . .

* * *

إن المبادئ التي يمكن أن تُتضاع منها سياسة صالحة ، هي الجديرة اليوم بالسيادة ، والذبوع . حتى يمكن الظفر بضمير سياسى جديد يتوخى المبدأ ، لا المنفعة . . ويحترم الحق ، لا الباطل . . ويعمل في خدمة البشرية مجتمعة . لا في خدمة قطاعات متنافرة . ، وإقليميات متناحرة . .

..والرِّمَّاحَ مَمِيحًا جَلِيلًا !

تنبأ بسلام الأرض ومن عليها ، كثيرون من أبنائها البررة الذين
ساروا فوقها هَوْنًا .

وعمل لهذا السلام كثيرون يعقو لهم ، وبسوا عديم وبمساعيمهم
الجليلة النيلة . .

وهناك على ناصية الطريق من بعيد . . نوك إنسان بارء ،
بُشرى مضينة .

إنه « اشعيا » أنبأ أن عالمًا جديدًا سُهِّلَ زمان ، وتُطَلَّ أيامه -
يقف الناس جميعاً فيه لإخوة متحابين .

« يطعمون سيوفهم سِكِّكا ،
« ورماحهم مَنَاجِل
« لا ترفع أمة على أمة سَيْفا ،
« ولا يتعلون الحرب فيما بعد ،

كان سلام العالم « رؤيا » الذين استشرقوا المصير الانساني ببصائرهم
المجلوة المشرقة المُسَلِّمة . .

وكان « أمل » الذين استقرءوا التاريخ ، وتبعوا حركته ؛
فأروا فيه محاولة صامدة وصاعدة . .

وفي عصورنا هذه قوى الرجاء ، وازدهر الأمل . وأوشكت

« الرؤيا » ، أن تصير « رؤية » .. وأصبحت قضية الأخاء البشرى موضع اهتمام الناس جميعاً .

وهذه الصفحات على الرغم من الحمية المتبدية في بعض كلماتها .. ليست إلا تغريدة في مهرجان الأمل العظيم .

ولكنها تكون تغريدة خالية من المعنى ، ومن البهجة الصادقة ، لو أننا تجاهلنا عوامل الفرقة والتمزق ولم نكشف عنها قناعها وغطاءها ، تمهيداً لمقاومتها وعزلها عن الحياة الإنسانية .

ولقد أثبتنا على ما نرى أنه أكثر عوامل التفرقة شراً . وقلنا إنها .

- رأس المال الهادف إلى الاحتكار والسيطرة ..
- الأحلاف التي وقفت وراء معظم الحروب ، والسرقات ..
- تقسيم العالم إلى « دول كبرى » لها كل شيء ، و « دول صغرى » ليس لها من الأمر شيء ..
- انحراف الضمير السياسى عن المبادئ الإنسانية ، وإيثارة المنفعة على الواجب ..

ولقد كان التاريخ شاهد صدق على الدور الويل الذى لعبته هذه الآفات الأربع ، في تمزيق وشائج الأخاء الإنسانى ، وفي تضليل إرادة التفاهم ، والتجمع ، والالتقاء .. ١

والآن ، نود أن نُوفِّق إلى وضع خطة تتلافى بها زحف هذ

العوامل الضارة .. وإلى اختيار نهج يقترب من الغد العظيم ولسنا نزعّم أننا نملك الخطة الكاملة ، ولا نُقدّم النهج الأوّفى .

وإنّما هى « إيماءة » إلى الطريق .. بيد أنها بما تنطوى عليه من صدق المحاولة، وإيثار الفهم على الظن - يمكن أن تكون ذات نفع عظيم لعدأبانت الصفحات السالفة من الكتاب ، المخاطر المبهطة التى تُعرّضُنا لها الآفات الأربع .

فكيف السبيل إلى نفيها من حياة الشر .. وكيف السبيل إلى جمع الشّئآت البشرى ، والاقتراب من عصر العالم الواحد والإنسان المُحبّ الودود .. ؟؟
هذا هو ما سنحاوله فى هذا الفصل الأخير من الكتاب .

* * *

موقف نزاع ..

ونبدأ محاولتنا بتصور العالم على الطبيعة .. لافوق الخريطة . وأول شيء ستقع عليه أعيننا ، وأكثر مظاهر هذا العالم أنارة لانتباهنا ، هى مسافة الخُلف الحافلة بأسبابها بين معسكرين شهيرين .

(أ) معسكر الرأسمالية ، أو الغرب .

(ب) معسكر الاشتراكية ، أو الشرق .

وبالتالى - بين الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى ..

ونحن نؤثر أن نبداً محاولتنا من هنا .. أعنى من مواجهة هذا الموقف الذى اخترنا له كلمتى « موقف نزاع » ..

وليس سبب هذا الاختيار فى البدء ، أن روسيا وأمريكا دولتان كبيرتان .. أو أن الرأسمالية والاشتراكية مذهبان أوحدان ..

فتحن كما أوضحنا من قبل ، وكما سنذكر من بعد ، لا تؤمن بتقسيم العالم إلى كبير وصغير ، ولا بتقسيم المذاهب والفلسفات أيضاً .

فلجميع الأمم حقوقها المتكافئة .

ولجميع الفلسفات حقوقها المتكافئة .

ولا فضل لامة على أخرى ولا لفلسفة على أخرى إلا بقدر ما تسدى من يد للسلام ، والخير ، والعدل ، والحقيقة ، والأخاء .

ولقد قلنا إننا ننظر إلى عالمنا اليوم على الطبيعة ..

وعلى الطبيعة ، وفوق صعيد الواقع ، نجد دولتين انتهت إليهما - وفق الأساليب السائدة من زمان - زعامة العالم فى عصرنا هذا ..

وسواء تقبلنا هذه الزعامة أو رفضناها ، فهى من جهة الواقع ليست خرافة ولا وهما .

إن ظروفنا تاريخية معروفة ، دفعت كلتا الدولتين إلى الصدارة فى عصرنا هذا .

ونقول « فى عصرنا هذا » ، لأن أحداً لا يعلم ماذا تكون الأمور

— ١٢٧ —

غدا ، إذا ظلت المعايير التي تجعل في العالم صغارا وكبارا ، قائمة وسائدة .
وتصفية الموقف بين روسيا ، وأمريكا .

وبين الرأسمالية ، والشيوعية .

هذه التصفية - لو تمت - تكون نقطة الانطلاق العظيم نحو عالم
لأنائم فيه ولا غل .

ولكن يجب أن تتم التصفية وفق المبادئ التي تخدم المصير الانساني
المشترك - لا وفق القواعد التي تخدم مصاير خاصة . .

ولكي يتم هذا على الوجه الحق ، لا ينبغي أن تُترك معالجة ما بين
الدولتين ، للدولتين وحدهما .. بل ينبغي أن يسهم العالم كله ببنية صادقة
في إتمام هذه التصفية .

وتصفية ما بين الدولتين ، تقتضي اكتشاف ما كان بينهما من تاريخ
مشترك ، واكتشاف عوامل الاتفاق والقربى التي هي موجودة فعلا ،
والتي تستطيع أن تجمع بينهما في عمل مشترك عظيم . .

وتصفية ما بين المذهبين ، تقتضي معرفة البناء التاريخي لكل منهما ،
واكتشاف الترخوم المشتركة بينهما ، وفهم فلسفة التوقيت التي تعمل فيهما
وتختار بينهما .

لقد ألقنا أن نعطي عوامل الخلف من حرصنا ، وسعينا ، أكثر

— ١٢٨ —

بما نعطي عوامل القرب والاتفاق . . ومن ثمَّ كانت مُشقة الخلاف
تمضى دائماً نحو الاتساع .

أما الآن ، فسنقصر محاولتنا على كشف عوامل القرب . . كشف
الأرض المشتركة التي تنف فوقها جميعاً مهما شطَّ بنا الخلاف .

• • •

تُرى ، هل يكون من حسن حظ العالم أن تنحصر خلافاته الكبيرة
والشاقة اليوم بين الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتي . . ؟؟
رُبما . .

فالدولتان - عبر التاريخ - كانتا دائماً أقرب إلى المودة المتبادلة ،
منهما إلى الحقد والعداوة .

وبعد ثلاثين عاماً من قيام الدولة الأمريكية ، بعد انتصارها
في حرب الاستقلال - إلى أيامنا هذه ، والعلاقات بين البلدين طيبة
في مجموعها . .

ويوم وقفت بريطانيا وفرنسا ، تغديان الحرب الأهلية الأمريكية ،
وتناصران الجنوب في تلك الحرب ، تقدمت روسيا القيصرية
بمساعداً هائلة أحبطت عمل فرنسا وإنجلترا . . وكان هُتاف
الأمريكان يومئذ " الله يبارك الروس ، . . !

ولعلّ مخاوف أمريكا من روسيا ، لم تأخذ شكلها الحاد إلا يوم انتصرت الثورة الشيوعية ، وقام الاتحاد السوفيتي .

فصداء هذه الثورة ، سمحت أمريكا لنفسها أن تتدخل بقوة السلاح في شئون روسيا وضد حكومتها .

كما سمحت لنفسها أن تمتنع عن الاعتراف بالحكومة الجديدة مدى أربعة عشر عاماً - من عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٣٣ .

على أن في التاريخ ظاهرة عجيبة . تشير إلى أن في علاقات روسيا وأمريكا وشيجة هامة لعلهما عاجزان عن رؤيتها .

ففي الحرب العالمية الأولى . . وقفت الدولتان في جبهة واحدة . .
وفي الحرب العالمية الثانية . . وقفت الدولتان في جبهة واحدة . .
والعبرة في الحرب الثانية أُلْمِعَ منها في الحرب الأولى . .
فالحكومة الروسية التي خاضت الحرب مع أمريكا في الحرب الثانية -
كانت حكومة شيوعية ..

وهذه الحكومة كانت في حلف مع هتلر . . حتى كشفت لها الظروف الصحيحة أن مكانها ليس مع هتلر . . وإنما مع حليف آخر ..
وكان هذا الحليف - أمريكا .

أليس ثمة سرا خفيا يجمع بين الدولتين في ساعات الخطر .

بلى .. هناك سر ، ولكنه ليس خفياً .. بل هو واضح ومائل
فما بين الدولتين من إمكانيات طبيعية للتفاهم والتآخي ..

ماذا تنقم أمريكا إذن من روسيا ؟

وماذا تنقم روسيا من أمريكا ؟

لا بد أن النزاع بين المذهبين الرأسمالي ، والشيوعي - على رأس
عوامل الخلاف بين الدولتين .

وسوف نعرض لهذا العامل عندما نتحدث عن الخلاف المذهبي .

أما الآن فرى أن من أسباب نقمة أمريكا على روسيا ، أنها

أولاً - مسئولة عن معظم الانتفاضات الثورية في بلدان آسيا ،
وأفريقيا ..

ثانياً - مسئولة عن الحملات التي تعرضت لها أمريكا في كثير من
بلدان آسيا وأفريقيا ..

ثالثاً - مسئولة عن التخريب الذي تسوقه بالشعوب الأخرى ،
عما يحمل هذه الشعوب تتخذ من روسيا صديقاً لها . . . وكل صداقة
لروسيا - تعنى عند أمريكا - العداوة لأمريكا ..

رابعاً - محاولاتها المستمرة لبسط سيطرتها وسيادتها ونظامها
على العالم .

ونحن لانؤمن هذه الأسباب ولا نفتعلها .. وإنما هي مبسطة في كل الكتابات الأمريكية التي كتبها كبار كتّاب أمريكا ومعلقها السياسين . ، ومبسطة كذلك في التصريحات الرسمية الكثيرة للمسؤولين الأمريكيين ..

● - فأما مسؤولية روسيا عن ثورات التحرير في العالم . فهو شرف عظيم تضفيه عليها أمريكا ، وهي لاتدرى ..

ونحن بدورنا نشرك أمريكا في هذا الشرف .. باعتبارها صاحبة ثورة من أنظف وأعظم ثورات التاريخ .. ثورة كانت الطليعة للثورة الفرنسية نفسها ، ولكل ثورات التحرر في أوروبا خلال القرن التاسع عشر ، ومطالع القرن العشرين ..

وحتى إذا كانت روسيا مسئولة وحدها عن ثورات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، فهل في ذلك ما يثبتس به أمريكا .. ؟؟

إننا نفهم أن يثير هذا مغايظ بريطانيا ، وفرنسا ، لأن العقد الذي انفرط بهذه الثورات كان عقدهما . أما الولايات المتحدة ، وطن جيفرسون ، ووشنطن ، ولنكولن . فالحا لها في ثورات التحرير عدو تخشاه .

* * *

● - أما مسؤوليتها عن الحملات التي تعرضت لها أمريكا في كثير من

— ١٣٢ —

بلدان آسيا وأفريقيا .. فالمبستول الأول والواحد - أمريكا نفسها منذ أسست « ذقتها ، لحلفائها ، وخاضت معهم أو حال أقصى استعمار مارسوه وفرضوه على الناس ..

عندما حرص « ترومان ، رئيس الولايات المتحدة على أن يكون أول مهني بقيام دولة « إسرائيل ، دون أن يُدخل في اعتباره الفطن ، التبعات السياسية لهذه المبادرة .. ودون أن يُجامل العرب في مآساتهم الكبرى ، ولو بالترتيل قليلا في إزجاء التهتة .. !!!

عندما فعل هذا ، أثار حفيظة العرب بلاريب ولم تسكن روسيا صاحبة الفضل في هذه الإثارة .

وعندما أعلن حكومة مصر إلغاء معاهدة «٣٦» وتُرسل بريطانيا شواظاً من نار على شعبها في القنال ثم يقف وزير خارجية أمريكا ليعلن « أن حكومة مصر لا تملك الحق في إلغاء المعاهدة ، ويُناصر بهذا التصريح كل أعمال البطش البريطاني ضد شعبنا .. فأن مثل هذا الموقف يثير نقمتنا لاريب .. ولم تسكن روسيا صاحبة الفضل في هذا ..

وعندما تفاجئنا حكومة الولايات المتحدة بسحب تمويل السد العالي ، وفي ساعة خطيرة من ساعات حياتنا .. ثم تشفع عملها هذا ، بأشهار إفلاسنا على العالم أجمع ، بطريقة لا ذوق فيها ولا عدل ..

فأن هذا الموقف يدعو للغضب لاريب .. ولم تكن صاحبة الفضل فيه - روسيا ..

وحين تحمل أمريكا ، هيئة الأمم المتحدة على حرمان الصين من أبسط حقوقها وهو عضوية المنظمة العالمية المذكورة .. فإن ذلك يثير الحفيظة ، والريب .. وليست روسيا صاحبة الفضل في هذا ..

وهناك مواقف كثيرة تنقسم بالرداءة ، نوردت فيها سياسة الولايات المتحدة .. ولكننا لانستطرد في ذكرها ، لأن تصفية الأحقاد ، لا إشعالها - غرضنا من هذا الكتاب .

وما كنا لنسوق هذه الأمثلة ، لولا أن المقام يتطلب ذكرها حتى نصحح موقفاً ، يتطلب سلام العالم تصحيحه .

* * *

● - أما مسئولية روسيا عما تعتبره أمريكا تغريراً بالشعوب التي تسارع إلى صداقتها ؛ فلنسأل التاريخ عن هذا .

عندما قامت حكومة لينين ، في روسيا ، بدأت عملها بنشر الاتفاقات السرية التي كانت قد أبرمت من بريطانيا ، وفرنسا ، وقيصر روسيا .. والتي وزع العالم بمقتضاها بين الدول الثلاث ، لغنيمة باردة ..

وعلى الرغم من أن هذه الاتفاقيات السرية كانت تمكن روسيا من

فرصة ذهبية ، وتعطيها استانبول ، والدردنيل ، وبحر مرمرية ، ومنطقة واسعة تستأخم القفقاس .

على الرغم من هذه الفرصة الذهبية النادرة ، فقد أعلن « لينين » تنازل روسيا ، بل استأزها من هذه الصفقة المسروقة .

لنقل أمريكا في دوافع هذا العمل ما تقول .. ولكن ألا تعترف أنه عمل عظيم باهر .. ؟؟ وأليس مثل هذا العمل يدعو إلى حب أصحابه وتقديرهم .. ؟؟ وهل هذا الحب ثمرة تغريروخداع ..

إن الاتحاد السوفيتي في منطقة كنطقة الشرق الأوسط لم يخلق لنفسه عدوات بين أهلها .. عدوات تحمل الناس على الخوف منه فضلاً عن بغضه .

تماماً مثل الولايات المتحدة قبل أن تحمل أوزار خلفاتها .

لقد ثار العرب ثورتهم الكبرى عام - ١٩١٦ - .. وفي تلك الثورة ، ناصروا الإنجليز والفرنسيين ضد الدولة العثمانية - أملاً في الظفر بحريتهم التي وعدهم بها الإنجليز والفرنسيون .. « ١ »

ولكن قبل هذه الثورة بشهر واحد ، كانت بريطانيا وفرنسا قد وقّعتا مع القيصر اتفاقية « سايكس بيكو » ومزّقا بها العرب شراً ممزق .. في نفس الوقت الذي كانوا يقولون للعرب فيه : ساعدونا

— ١٣٥ —

ضد تركيا ، ولكم الحرية كافة والاستقلال كاملا ..
ولم يفصح لنا هذا الإتفاق الغادر سوى حكومة الاتحاد السوفيتي ..

* * *

وفي إيران - ورثت حكومة لينين ، جزءاً كبيراً كانت تحتله
حكومة القيصر ، وفق معاهدة سرية بين القيصر وبريطانيا .. فما إن
تسلم « لينين » زمام الحكم حتى سحب جيوش بلاده فوراً .. ولا بد
من أن تصنع بريطانيا صنيعاً مماثلاً ، زحفت بجيوشها شمالاً ، واحتلت
جميع إيران .. ١١١

أفيكون هذا العمل من روسيا تفريراً وخداعاً ..

* * *

وفي تركيا - حين قام .. أتاتورك ، بثورته وألبت بريطانيا ضده
كل دول العالم فرفضت الاعتراف به .. واستولى الجيش البريطاني على
نصف أراضي تركيا ، واحتلت إيطاليا جزرها - لم يسارع لنجدها
سوى الاتحاد السوفيتي الذي اعترف بحكومة « أتاتورك » ..
وأحبط المشروع البريطاني الفرنسي الإيطالي اليوناني الذي كان يهدف
لتمزيق تركيا واقتسامها ، وأمسك معاهدة « سفر » المشهورة ، هباء
في هباء .. ١١٠

أكان هذا العمل تفريراً وخداعاً ..

ومصر - عندما وقف الاتحاد السوفيتي يناصرها في مجلس الأمن
أثناء عرض قضيتها عليه عام ١٩٤٨ .

وعندما امتنع الغرب عن إمدادها بسلاح قبض ثمنه مقدما . .
قبض الاتحاد السوفيتي يده لإنها بالسلاح .

وفي حرب السويس عندما وقف « بولجانيين » يعلن باسم حكومته
وبلاده أن الاتحاد السوفيتي قادر على قصف المدن البريطانية
والفرنسية بالصواريخ الموجهة ، إذا لم تنه بريطانيا وفرنسا عدوانهما
المسلح . .

أكانت هذه المواقف تعريراً وخداعاً . . ؟ كيف نعتبر تمويل
المرحلة الأولى في بناء السد العالي مثلاً - ضرباً من التغيرير . ونحن نرى
البناء يُشاد ويرتفع . . ؟

الحق أن أمريكا تستطيع أن تكتشف بنفسها ولنفسها، أن حُبَّ
الشعوب التي تناصرها روسيا ، لروسيا ليس ثمرة خداع ولا تغيير
إذا جرت هي ، ومنحت هذه الشعوب قلبها وودها ، وعاونتها على
نيل حقوقها كاملة .

عندئذ ستحبها هذه الشعوب وتحترمها - كما أحبت روسيا
واحترمتها . . . وعندئذ ستعرف من طعم هذا الحب حين تذوقه
- أنه ثمرة الفهم وحفظ الجليل . . لا ثمرة الخداع والتغيرير .

— ١٣٧ —

أما محاولة روسيا بسط سلطانها ونظامها على العالم .. فنود
أن نسأل :

هل في محاولتها هذه - إن صحّت - ما يشدّ زناد البغضاء ، ويوسع
شقّة الخلف بين أمريكا وبينها .. ؟

لقد عاشت العلاقات ودية وطبيعية بين أمريكا وبريطانيا يوم -
لم تكن بريطانيا تحاول خصب - بل كانت تبسط على العالم بالفعل
سياستها وتفرض عليه استعمارها ..

وفرنسا ، صديقة أمريكا وشريكها في حلف الأطلسي ، تركب
خلال أربعة أعوام موصولة الأيام والليالي ، أشنع أنواع السيطرة ،
والاستعمار والتخريب . .

فهل تستطيع أمريكا أن تعامل روسيا بالمثل فتبها صداقتها في
نفس الوقت الذي تحاول فيه روسيا بسط سلطانها ونظامها على
غيرها .. ؟

قد يبدو هذا السؤال ساخراً .. ولكنني مع هذا أعنيه .

ثم إذا كان هذا الاتهام صحيحاً .. وكانت روسيا تبغي حقيقةً ،
بسط سيطرتها وسلطانها ، فما سبيل الخيلولة بينها ، وبين محاولتها .. ؟

إنها سبيل واحدة .. هي دعم سلطان هيئة الأمم المتحدة دعماً

كاملا ، وتمكينها من بسط نفوذها على الدول الكبرى نفسها ، حتى تصبح قادرة على كبح جماحها حين تحاول الجحوش إحداها .

و حين ترتفع تصرفات أمريكا إلى المستوى الذى تتطلبه سيادة الأمم المتحدة . . و حين تُسخّر نفوذها لدعم هذه السيادة ، ستكون حقاً قد قطعت الطريق على كل محاولة فردية لسط النفوذ والسيادة .

✱ ✱ ✱

لا بد من اكتشاف جميع عناصر التفاهم المشترك ، القائمة والممكنة ،
في العلاقات الأمريكية الروسية . . ولا بد من تنمية هذه العناصر ،
ودعمها بما هناك من مصالح مشروعة ومشتركة بين الدولتين . .

في عام - ١٩٤٥ - زار موسكو « أريك جونغستون » رئيس الغرفة التجارية الأمريكية يومئذ - ، واجتمع برئيس وزراء الاتحاد السوفيتي ، وكان الرفيق « ستالين » .

وقال له ستأين :

« إن الولايات المتحدة ، قد أسدت إلى الصناعة ،
 « السوفيتية عوناً عظيماً
 « وفي الاتحاد السوفيتي مصانع كثيرة أنشئت ،
 « بالعون الأمريكي ، أو استعين في إنشائها بالخبرة ،
 « الأمريكية »

وقال أيضاً :

« لفتح صنع هتلر الأحمق خيراً واحداً . . . هو أنه »
 « جمع بين الشعب الأمريكى ، والشعب الروسى »
 « وعلينا ألا نسمح لشيء ما أن يفرق بيننا . . . »
 « نعم . . . يجب أن نعمل معاً بعد الحرب . . . »

* * *

هذا عن النزاع بين الدولتين .

أما النزاع بين المذاهبين ، أو النظامين - الرأسمالى . والشيوعى
 قائمه هـين إذا نحيينا التلغظ وتوخيينا الفهم الصحيح .

عندما انتهت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ ، انتهت معها
 الزعامة الفعلية لـ « أوروبا » ..

ويومئذ ، أخذت تركتها ، وميراثها ينتقلان فى تدرج وأناة إلى
 أمريكا بنظامها الرأسمالى .. وروسيا ، بنظامها الاشتراكى ..

ونستطيع أن نقول : إن أمريكا ورثت « أوروبا » ..

وإن روسيا ورثت « نقيض أوروبا » ..

أى أن أمريكا أخذت النظام الاقتصادى والرأسمالى الذى كان
 قائماً فيها بالفعل حتى قبل أن ترث أوروبا ، ثم صارت به فى امتداد
 صاعد ..

وأما روسيا ، فأخذت من هذا النظام تقيضه المتفوق عليه ..
وإذا أخذنا بنظرية في تجوُّز بنظرية الديالكتيك ، قلنا : إن أوروبا
قد همت لحصرنا الحديث الشيء ونقيضه .

والشيء ، ونقيضه - يعملان اليوم على صعيد المرحلة التاريخية
المائلة .. وسيُثمران معاً النتيجة المركبة التي ستضمن خير مافي الشيء
وخير مافي تقيضه .

والشيء هنا - هو الرأسمالية ، بكل فلسفاتها ونظمها . .
وتقيضه - هو الاشتراكية ، بكل نظمها وفلسفاتها .

وفي كل مجالات الطبيعة ، نجد الأشياء ، وأضدادها تعمل معاً
وتتفاعل معاً لأداء غرض واحد هو : استمرار الحياة ، والكشف
عن إمكانياتها الوافدة الواعدة .. دون أن ينشب بينها قتال ..

فلماذا لا يقوم . في المجال الاجتماعي ، نفس التعاون بين الشيء
وتقيضه .. بين الرأسمالية ، والاشتراكية ..

ولماذا لا يكون لنا - نحن البشر - دورنا في دعم هذا التعاون
وتقبل قوانينه .. ؟

لست أدري مدى مافي وجهة نظري هذه من خطأ مُحتمل .. ولكني
أحسب أن فيها بصيصاً قوياً من صواب ، يمكن أن يكبر وينمو
بما يُضيفه إليه القاريء من تفكيره وذكاؤه .

وأحسب كذلك أن من ضرورات الأخاء البشرى ، والسلام العالمى ، أن تدرك الرأسمالية ، والشيعوية ، أنهما يصنعان معاً مصيراً إنسانياً واحداً ..

ولن نكون لأحدهما الغلبة - حين تنسحب الأخرى من الميدان - .. بل ستكون الغلبة للتقدم الإنسانى قاطبة ، وللقافلة البشرية بأسرها .

إن حركة التاريخ تقرر دائماً ، وتختار النهج الملائم لسير التقدم الإنسانى .

وهتاف كل فريق بمذهبه ، وفُتُونه بنظامه ، لا يعينان خِداد هذه الحركة الذكية الواعية . ؛ فهى ماضية إلى خير البشرية كلها . لا تُحاي ، ولا تملق .

ونقد كل من المذهبين للآخر ، لم يعد يستوجب العداوة والحقد ، والحرب .

كما أن أى نقد يوجه لإليهما من خارج معسكريهما ، يجب أن يجد فرصته فى الإفصاح والتعبير . . سيما وكل مذهب يريد أن يكون الرائد للتقدم الإنسانى ، ويزعم أنه على ذلك قدير . ؛ فلا أقلّ إذن من أن يسمح للذين سيمضون وراءه أن يُناقشوه ، ويتأكدوا من جدارته وصلاحيته .

ولقد قام من أقطاب الرأسمالية نفسها من وجهه إليها النقد المرير .. وطالب بتطويرها ..

ذلكم هو د اريك جونسون ، ، وهو من كبار الشخصيات
الأمريكية التي نعتز أمريكا بتفكيرها ، وجهودها والمناذى بفلسفة
جديدة لرأسمالية ديمقراطية . .

ففى الحفل الذى أقيم تكريما له لمناسبة انتهاء مدته كرئيس للفرقة
التجارية الأمريكية . قال بالحرف الواحد :

« إن تعريف الرأسمالية فى المعجم ، أصبح ميتا ،
« كالحیوانات المنقرضة
« الرأسمالية : حشد رأس المال .. الرأسمالية : نفوذ ،
« رأس المال ، متى انحصر فى أيدي رجال قلائل .. ،
« وقد عاش رجال الأعمال أمدا طويلا فى ظلال ،
« هذا التعريف ، وهو لا ينطبق إلا على ما مضى من ،
« عهود السلب والنهب ، والسالبين والمحتكرين .. ،
« أما الآن .. فقلبوا أنظاركم فى أرجاء الأرض ؛ ،
« تروا ما تمّ فيها . . لقد زالت الرأسمالية القديمة ؛ ،
« أو كادت
« صُفِّيت فى روسيا . . . وهى فى حشجة الموت ،
« فى أوروبا . . . وتكاد تختنق فى بريطانيا .. ،
« ولقد كانت فترة رياستي للفرقة التجارية فترة تجربة ،
« ودأرة . . وقد اقتضانى عملى فيها أن أتجول فى »

« أقطار الأرض فرأيت مصرع الرأسمالية بعيني رأس ،
 « وقد اقتضاني عملي أيضاً أن أتجول في أمريكا مراراً ،
 « لا حصر لها . . . فخرجت من رحلاتي كلها بهذه ،
 « العبرة : إما أن تُسائر المبادئ الحرة ولما أن ،
 « نواجه خطر الانقراض .. هذا هو ناموس الحياة :
 « المسيرة .. أو الانقراض » ١١

* * *

كذلك قامت الشيوعية بنقد نفسها ، نقداً عملياً تجلياً في التعديلات
 الكثيرة التي كانت الماركسية تخضع لها على ضوء التطبيق العملي في أول
 حقولها ، وهو روسيا . .

كما أن المآخذ التي أدان بها « خروشوف » سلفه الرفيق « ستالين » ،
 كانت في جوهرها اعترافاً ضمناً بوجود نقاط ضعف في النظام نفسه ،
 تحتاج إلى تصويب وتقويم .

ولقد نشر كاتب أمريكي كبير كتاباً بعنوان « قضية السلام »
 ونشر ملخص كامل له باللغة العربية . .

وعلى الرغم من أننا لا نوافق المؤلف في بعض النقاط ، إلا أنه
 - في مجموعه - يمثل وجهة النظر التي نقررها هنا . . وهي أن المذهبيين .
 قادران على أن يعيشوا معاً عيشاً حميداً .. وعلى أن النقد يجب أن
 يكون موضع حفاوتهما ، إذا كانا يشقان بنفسيهما ..

وقد قام المؤلف نفسه ، وهو « أمري ريفز » بمناقشة الرأسمالية ،
والشيوعية .

وعلى الرغم من أنه أمريكي ، ولا يؤمن بالشيوعية ، فقد قال قولا
فيه كثير من الاعتدال ، والحكمة .

قال تحت عنوان « إخفاق الرأسمالية » :

« كانت الرأسمالية ، هي الفلسفة الاقتصادية السائدة »
« عند مولد النهضة الصناعية وكانت ثورات التحرير »
« السياسية ، قد حققت غاياتها في بداية القرن التاسع عشر »
« وكان من الطبيعي أن تصبح المُشْئَل العليا السياسية »
« التي انتصرت ، هي المبادئ الأساسية السائدة »
« في ميادين الاقتصاد والصناعة والتجارة في فاتحة »
« العصر الصناعي وهكذا سارت حرية الاجتهاد ، »
« وحرية التجارة ، وحرية المنافسة جنبا إلى جنب »
« مع الحرية السياسية »
« على أن الاقتصاديين من دعاة الحرية المطلقة ، »
« للاجتهاد ، عجزوا عن أن يدركوا أن الحرية في »
« الشئون الاقتصادية لا يمكن أن تكون مطلقة ، إلا »
« إذا كانت المساواة التامة المطلقة قائمة بين الأفراد »
« وإلا إذا أُلغى الميراث ، وصار على كل إنسان أن »

« يبدأ من البداية - الأمر الذي ليس يمكننا - . . . »
 « ومن الجلى أن النظام الموجود الآن في الدول »
 « الرأسمالية ، لا يمكن أن يُسمى - اجتهدا حرا مع »
 « احتكار كثير من الصناعات احتكارا يمنع أن »
 « توجد محاولات جديدة »
 « ومن أجل هذا ، خلقت الحالة الصناعية الحديثة »
 « ثروات لا تتناول إليها الأحلام للاقوياء من الوجهة »
 « الاقتصادية ، وفقرا ونقصا في الحرية للبلايين الذين »
 « صار عملهم مجرد سلعة »

* * *

ويقول المؤلف نفسه تحت عنوان « إخفاق الاشتراكية » :

« كان المثاليون الذين يؤمنون بالمجتمع الجامع مقتنعين »
 « بأنه متى تمَّ تحويل ملكية الأرض ووسائل »
 « الإنتاج من الأفراد إلى الدولة ؛ فإن المساواة »
 « الاجتماعية تتحقق ، فيوجد مجتمع جديد سعيد ، »
 « يعيش في رَغَد »
 « على أنه تبين بعد سنوات قليلة من قيام الثورة »
 « الشيوعية أن المساواة الاجتماعية والاقتصادية »
 « لا تتفق مع طبيعة الإنسان ، فأن الاجتهاد »

« الخاص لازم للتقدم ، ولا مَعْدَى عن مقدار من ،
 « الملكية كنتيجة الحرية الإنسانية وقد ظلت الأمة ،
 « الروسية عشرين عاما تعمل بهمة وإخلاص في سبيل ،
 « إحراز قوة صناعية عظيمة ، وإنتاج الأسلحة ،
 « اللازمة للدفاع عن بلادها إذا هُوجمت ولكن ،
 « مستوى المعيشة ظل منخفضا جدا على الرغم من ،
 « أرقام الإنتاج الضخمة وقد اضطر الشعب السوفيتي ،
 « أن ينزل عن حرته الفردية ، وعن كل أمل في ،
 « حياة رغيدة قريبة ، وفي إنتاج سلع الاستهلاك التي ،
 « يحتاجها ليتسنى له قصر جهوده على صناعة مواد ،
 « الحرب .. وقد أثبت الهجوم الألماني على روسيا في ،
 « يونيو عام ١٩٤١ — أن الاهتمام بالصناعات ،
 « الحربية كان أمر لا بد منه وجاء الانتصار في ،
 « ستالنجراد دليلا على مبلغ نجاح هذه الخطوة . »

* * *

وبعد أن يُسْطَنب « أمرى ريفز ، مؤلف « قضية السلام ، في نقده
 للاشتراكية مثل إطنابه في نقده للرأسمالية ، ينتهى إلى هذه الكلمات
 المعتدلة الحصيفة :

« لا حل هناك للجزم بشئ فيما يتعلق بالنزاع بين ،

«الرأسمالية ، والشيوعية فإن كليهما تعلن أن غايتها ،
 «رفع المستوى المادى والثقافى للجهابير»
 «أما أن يكون هذا النظام ، أو ذاك - أقدر على ،
 «إدراك هذه الغاية ، فأمر يجب أن يتقرر بعد ،
 «التجربة ، لا بأن يحطم كل منهما رأس الآخر»
 «وإذا كان شعب معين . كالشعب السلافى تميل به ،
 «تقاليده التى مضى عليها قرن ، إلى الملكية العامة .»
 «وإذا كانت شعوب أخرى ، كاللاتينية والانجلو ،
 «السكسونية ، تميل بها تقاليدها إلى الملكية الخاصة ،
 «فإنه ايس هناك أدنى سبب يمنع هذه النظم المختلفة ،
 «من الوجود معاً ، والتعاون معاً»

* * *

هذا هو الموقف الفكرى والسياسى الذى ينبغى أن يكون طابع
 العلاقات بين المذهبين المتنازعين . . الرأسمالية والشيوعية .

وليس من حق دُعاة المذهبين أن يَغْلُوا ، أو أن يُفَاقُوا مشاعر
 الشك والترهب .

وينبغى أن يحمل كل فرد تبعاته حيا ل هذا الذى أسميناه «موقف
 نزاع ، بين الرأسمالية والشيوعية .. مُدركين جميعاً أن إقرار السلم ،

والإخاء في زماننا ، رهن بإحراز قدرة على التسامح ، والفهم ، تستعلى على كل تعصب وبغضاء .

مال ، بغير رأس . .

تحدثنا عن سير التجارة عبر التاريخ ، ورأينا كيف ارتبطت بالحروب دائماً ، حتى اصطنعت أوروبا شعاراً ، بل عقيدة تقول : « الحرب تنعش التجارة » . .

ولقد تطورت التجارة تطوراً ضاراً ، حتى صارت رأسمال محتكر متسلط . . وتطورت الرأسمالية ، حتى بلغت أوج امتدادها ، فإذا هي استعمار وحروب . .

والناس معذورون ، حين يُحملون « رأس المال ، المسئولية الأولى عن الحرب وتخريب عالمهم .

فسلوك الرأسمالية لا يشجع أبداً على الثقة بها .

إنها تخون ، حتى وطنها عندما تتعرض مصالحها للضرر والخطر . .

في عام « ١٩٣١ » ، لم يكد الرأسمال البريطاني يُحس بوطأة الأزمة

العالمية . . حتى وجّه لبلده بريطانيا ضربة قاصمة . . !

فقد قام أصحاب رموس الأموال بتهريب أموالهم خارج بريطانيا ،

واضطرت الحكومة الانجليزية تجاه عملهم هذا ، أن تقرر فصل الجنيه

الاسترليني عن قاعدته الذهبية . . فهبطت قيمته فوراً إلى ثلثي ما كان

عليه . . !!

الناس معذورون ؛ لأن ظواهر كثيرة تَجَسَّبَهُ رأس المال بالاتهام .
 • ففي الأزمة العالمية عام د ١٩٣٠ ، توقفت المصانع ،
 وأجدبت الحقول ، وترك الفلاحون في كل العالم محاصيلهم ، أوكدوا
 يتركونها في مكانها من الحقول . . لأن أثمانها حين تُباع ، لا تفي
 بنفقات جنيتها وجمعها . . وملأت البطالة والمجاعة كل البلاد .

كل الصناعات توقفت أوكدت . . ما عدا صناعة واحدة ، زادت
 ازدهاراً ، تلك هي صناعة الأسلحة . . ١١١

• وتتعرف بريطانيا زعيمة الرأسمالية .يومئذ اعترافاً له قيمته
 فتقول في المذكرة التي أرسلتها إلى الحكومة الأمريكية عام د ١٩٣٢ ،
 بشأن ديون الحرب :

« إن الآلام التي تُعانيها البشرية لا يرجع لى سببها ،
 « إلى جحود الطبيعة ولكنه يرجع إلى خطأ النظم ،
 « التي تسير عليها »

• ويقف هتلر ، عام ١٩٣٩ ، فيقول في خطاب له :
 « على ألمانيا أن تُصدّر ، أو تموت ، . . »

ويرد عليه « هيدسون » الوزير البريطاني من لندن ، فيقول :
 « وبريطانيا أيضا ، عليها أن تُصدّر أو تموت ، . . »

وهكذا أشعل والنزاع على التصدير والرجح ، أشبع حرب في التاريخ ..

• ويحدث توافق سعيد ، بين الحرب الكورية عام ١٩٥٠ ، وبين الأزمة الأمريكية التي سبقت حرب كوريا وتبدو العلاقة بين الأزمة ، والحرب واضحة مُبينّة .

فقبيل حرب كوريا - كما يحدثنا كتاب د الحرب والشعوب ، للأستاذ بدر السباعي - ، هبط مستوى الإنتاج الأمريكي إلى ٢٢٪ .

وزادت قيمة البضائع المخزونة ، ٦٠٪ .

وهبطت أسعار المحاصيل الزراعية ، ١١٪ .

وهبطت أرباح الشركات الرأسمالية ، ٢٥٪ .

وبلغت الأفلاسات ، ٧٥٪ .

ووصل عدد العمال العاطلين ، ثلاثة ملايين ، ونصف مليون عاطل ..

فلما نشبت الحرب الكورية ، أخذت الأزمة الاقتصادية الأمريكية

تنقشع ، ونشرت مجلة د الولايات المتحدة والعالم ، تقول :

« إن الحرب الكورية أوجدت أوضاعا قادرة على »

« إبقاء الإنتاج في مستوى رفيع . ولقد جاءت هذه »

« الحرب في أوانها » ؛ لتدقن شبح الأزمة الذي »

« كان يرعب رجال الأعمال الأمريكيين ، والذي »

« أقض مضاجعهم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ... »

• وبعد زيارة د خروشوف ، لأمريكا مباشرة ، يعلن مسئول

أمريكي ، و د سنانور ، كبير .

« أن وقف الحرب الباردة ، خطر على أمريكا . لأنه ،
 « سيسبب لتجارها المتاعب ، ولصانعي التوقف ، ،
 « ولعلمها البطالة »

* * *

ولا بد لنُشدان السلام ، فضلا عن إقراره ، أن يُقرر مصير
 رأس المال أولاً . .

والبشرية حتى يومها هذا ، لا تستغنى عن المال ، ولا عن التجارة . .
 ومن ثَمَّ ، فنحن لا ننادى بإلغائها . إنما ننادى بضرورة تطويعها
 لمبادئ التقدم الأنساني الماضي نحو بشرية واحدة جديدة . لا استقلال
 فيها ولا عدوان .

أجل . . نريد مالا بغير رأس . . إن صحَّ هذا التعبير .
 هل تريد الرأسمالية ، القناعة ، أم الجشع . . ؟
 هل تريد رحمة الناس ، أم هلاكهم . . ؟
 هل تريد تقدم البشرية ، أم تخلفها وانتكاسها . . ؟
 إنها تردد دائماً - أنها تريد تقدم الناس ورفاههم وسعادتهم . .
 وحسن هذا . . وعليها إذن أن تبحث لنفسها عن نهج لا يجعل

الاستغلال أوضع خصائصها ، والحرب أصدق نتائجها . . . ١١١
 إن الاعتزاز بالرأسمالية ، يلوذ أكثر ما يلوذ بمنطق واحد . هو :
 أنها النظام الذى يحقق حرية الفرد . . هذه الحرية اللازمة لكل نشاط
 إنسانى ، عكس الاشتراكية ، التى تُعَلِّى سلطان الجماعة على كل سلطان . .
 ونحن نسأل : أليس يمكن أن يسود سلطان الجماعة سيادة مقيدة
 بالحقوق الأساسية الثابتة للفرد . . ؟ ؟

ونجيب : بلى ، يمكن هذا . وهو ما نريد أن يسير عليه النشاط
 الاقتصادى دوما . .

ثم أين حرية الفرد فى الرأسمالية ما دامت تعتمد فى ازدهارها ،
 على المنافسة غير المشروعة . . وعلى الاستغلال والحرب . . ؟ ؟
 هل تُسبق المنافسة الظالمة . والاستغلال ، والحرب ، حرية
 الناس . . ؟

بل أين « حرية التجارة » نفسها ، وهى أهم مميزات الرأسمالية
 وأبرز خصائصها . . ؟

لقد انتهت حرية التجارة ، يوم قامت الحواجز الجمركية ، والحماية
 الجمركية . . وأمسى نظام الاجتهاد الحر غير ذى موضوع . . ١

تماما ، كما انتهت حرية الفرد حتى داخل الدول الرأسمالية نفسها
 يوم قامت التكتلات الكبيرة من أصحاب الصناعات الكبرى ،
 والرأسمال المكتنز . .

— ١٥٣ —

إن تفادى المصائر المظلمة التي تُسببها الرأسمالية المحتكرة يبدأ من نقطة هامة كل الأهمية .. ألا وهي : تجريد رأس المال من سلطانه، ومن حقوق السيادة التي انتحلها لنفسه .

وهذا العمل ، لا يُنَاطُ بأمريكا ، ولا يُنَاطُ ببروسيا ، ولا بأية دولة من الدول مهما يكن شأنها .. إنما يُنَاطُ تنفيذه بهيئة الأمم المتحدة رأسا .

أما كيف يكون ذلك .. فارجو أن نتحدث عنه ، بعد فراغنا من النقطتين التاليتين ..

* * *

ميثاق الانسحاب ..

كما أن تجريد رأس المال من سلطانه ، أمر محتوم لبناء عالمنا الواحد .. كذلك إلغاء الأحلاف ، أمر أكثر حتمية .

فالأحلاف ، كما تبيننا من قبل ، إنما يراد بها حماية مصالح خاصة للدول المتحالفة .. كما أنها كالحظايا : ينادى بعضها بعضا .. وبالتالي تمزق أواصر الأخاء والوحدة ، بما تشيعه في صفوف العالم من تكتلات متنافذة ..

ومن التناقض الشاذ الذي تتطوى عليه علاقات عالمنا . أن تقوم « هيئة أمم » لها الكلمة العليا كما هو مفروض .. ثم تقوم أحلاف

في كل مكان من الأرض بدافع التربص والأعداد للبغامة البشعة
الكبرى . . .

لابد للبشرية أن تحتفل في يوم قريب بحرق جميع وثائق تلك
الأحلاف . . من حلف الأطلسي ، إلى حلف وارسو . .

وما كان قبلهما ، وما جاء بعدهما من أحلاف . . .
ولقد أعلن الاتحاد السوفيتي عن استعداده لإلغاء « حلف وارسو »
فور إلغاء حلف الأطلسي . .

وما ينبغي أن يكون أقطاب الأطلسي أقل حرصاً على السلام . . .
هذا السلام الذي يتطلب وأد كل الأحلاف . . وإنهاض حلف واحد . .
وميثاق واحد . . هو ميثاق الإنسان .

قد يشق إلغاء الأحلاف على الدول التي تستمد من الأحلاف
طمأنيتها . .

ولكن تعلم ، بل لتستيقن أنها طمأنينة كاذبة ، تلك التي تنتظرها
من سياسة الأحلاف . .

في يوم ٣٠ ، أكتوبر عام ١٩٤٣ ، هَوّت أفئدة الناس إلى
« موسكو » ، حيث كان « مولوتوف » ، ممثلاً لروسيا . و « هل » ، ممثلاً
لأمريكا . و « إيدن » ، ممثلاً لبريطانيا ، و « فو » ، ممثلاً للصين . .
يوقعون وثيقة من الوثائق الطيبة يقولون فيها :

« إن المجتمعين يدركون الضرورة الداعية إلى - هيئة ،
« دولية عامة - تعمل على استئباب السلام ، والأمن ،
« بين الدول »

ولقد قامت فيما بعد هيئة الأمم المتحدة . . فلماذا لم يصادفها
التوقيع الواجب ، ولماذا لم تحظ بالثقة التي تغني عن التماس أحلاف
وتكتلات تشل عملها ، وتضائل من قدرتها .. ؟؟

هناك عامل له أهميته ، وخطره ، هو المسئول الأول عن هذا .. ؟
ألا وإنه التقوقع داخل الحدود الخاصة ، وإرباء الشعور القوي ،
على الحسّ الإنساني ؛ والعالمى . .
كل دولة تنشُد أهدافها الخاصة ، وتفكر لنفسها وتشعر بذاتها
وحدها ..

وهى بالتالى لا تستطيع أن تقف وحدها لتحقيق أغراضها ..
وعندئذ . تلتمس لها حليفا ، أو حلفاء . . .
أما حين تنشُد الدول أهدافا عامة تقوم على المبادئ الإنسانية
العامة .. وحين تعيش كل دولة بأحاسيس إنسانية عميم ؛ فيومئذ يتأتى
لها جميعاً وبصورة تلقائية ، توقيع هيئة الأمم ، والثقة بها والاعتماد عليها .
إن مغادرة الأنانية ، والتفوق على الذاتية ، بالنسبة للشعوب
والحكومات - ضروريان لإقرار سلام صحيح وبناء إزاء وثيق .

ولا بد من أن تقوم الثقافات جميعاً على هذا الأساس من اليوم ..
ولا بد من أن تشيع بكل وسائل التثقيف ، والمعرفة والدعابة ،
كلية « إنسان ، وكلية « عالمنا » ..

* * *

عالم بلا أرباب ..

وكل جهد يُبذل لأدراك الخير الإنساني المشترك . مقضى عليه
بالحُبوب ، مادام على الأرض أرباب يتمسكون بربوبيتهم ..

هؤلاء الأرباب ، الذين ناقشنا وجودهم التاريخي والسياسي في
فصل سابق ، والذين رأينا همهم العالية « ا » ، في تخريب العالم ،
وتدمير أمنه عبر التاريخ :

لقد رأينا ، كيف كان هناك دائماً في تاريخنا السياسي ، ما يسمى
بالدول الكبرى ..

كانوا مرة « الأربعة الكبار » .. ، ومرة أخرى « الثلاثة الكبار » ،
ومرة ثالثة « الخمسة الكبار » ..

ومن مؤتمر فيينا .. في بداية القرن التاسع عشر ، إلى أيامنا
هذه ، وكلية « كبار ، اصطلاح سياسي ، يحكى وضعاً « طبقياً » في
العلاقات الدولية للعالم ..

وهذا النظام الطبقي . في الأوضاع السياسية ، يجب أن ينتهي .

لقد قلنا : إتنا لا نتجاهل الفوارق الحضارية بين أمة وأخرى . .

وقلنا : إن هذه الفوارق تجعل بعض الأمم أبهى مكانا ، وأرفع شأنًا من غيرها . .

لكن ذلك مختلف اختلافا تاما عن التمايز الذى تصوره نظرية «الدول الكبرى» القائمة اليوم . والى قامت بالأمس .

فالمفهوم السياسى للدول الكبرى ، يعنى أن العالم كله تحت وصاية مجموعة من الدول تفوقت صناعيا ، وعسكريا .

وهذا الوضع لا يهلم مبدأ من أسس المبادئ الإنسانية وهو الديمقراطية ، فحسب . . . بل إنه كان كعب التاريخ من أهم أسباب الاستعمار ، والحروب . .

لجميع المؤامرات التى شهدتها تاريخنا السياسى منذ هزيمة نابليون إلى اليوم . . كانت مرتعا لأطماع الكبار . . ولو كانت مؤتمرات دولية بالمعنى الصحيح . ، أعضاؤها الشعوب ، لا الحكومات ، وغرضها صالح الشعوب ، لا الدول . . لنجت البشرية من آلام كثيرة سيبتها «النزوات الكبيرة» . .

إن وجود نظام عالمى يسمح بقيام «دول كبرى» و «دول صغرى» ، معناه أننا نعيش فى مظاهر تقدم خادع موهوم . .

فأى فارق بين «دول كبرى» ، تحمى من يلوذ بها من الأمم الصغرى.

اليوم .. وبين أمراء الأقطاع الذين قاموا ليحموا من يلوذ بهم من
ضعفاء الناس بالأمس البعيد .. ؟؟

إن وضع « الدول الكبرى » يشبه تماما وضع « أمراء الأقطاع »
الذين سادوا وسيطروا غداة القرن العاشر الميلادي .. ١

فلقد كانت « السلطة العليا » في أيدي أولئك الأمراء ..

تماما .. كما أن « السلطة العليا » اليوم في أيدي الدول الكبرى ..
وكان توزع هذه السلطة ، مما يبعث على الرية . والمنافسة ، وعلى
الخوف من فقدانها . ؛ فتقوم الحروب ..

تماما ، كما يحدث اليوم في علاقات الدول الكبرى بعضها ببعض ..
وكان المثل القائل « تغذيه » ، قبل أن يتعشى بك ، هو قانون
العلاقات بين الأمراء ..

وهو اليوم نفس القاعدة ، في علاقات الدول الكبرى .. ولولا
التقدم العلى الباهر الذى زلزل نوايا الحرب ، وألقى في أفئدة الدول
الكبرى فزعا كبيرا ، لكنا قد شهدنا تبادل الغداء ، والعشاء بينها
في صورة فناء واسع النطاق .. ١

أفمن أجل هذا ، كان جهاد البشرية طوال القرون .. ؟

وهل ثمة أمل - أذن أمل - في كنس الاستعمار الوقح من عالمنا ،
وهناك دول كبرى ، تحمل رواسب الغرور كلها ، ورواسب
الضلال كلها .. ؟؟

أليست المأساة الإنسانية الكبرى التي تمثل اليوم في الجزائر ،
ثمرة إصرار دولة مغرورة على أن تظل إحدى الدول الكبرى . . ؟
إن هناك « هيئة أمم » قائمة . . ولها رغم نقاط ضعفها - كلمة
مسموعة ، وجهود فعالة . . فهل استطاعت أن تكف الدم المراق
في الجزائر عن الجريان . . ؟

هل استطاعت أن توقف حرباً عدوانية مجرمة . . أجل مجرمة ،
وأكثر من مجرمة . . هي حرب فرنسا في الجزائر . ؟

هل استطاعت أن تحول بين فرنسا ، وبين شعب كل ذنبه أنه يريد
أن يعيش كما يعيش سكان أى شارع - بل أى زقاق في باريس ،
أو لندن ، أو واشنطن . . أحراراً آمنين . . ؟؟

لم تستطع « هيئة الأمم المتحدة » للأسف المريع وقف تلك الحرب
الظالمة . . .

لماذا . . ؟ لأن التي تمارسها ، « دولة كبرى » ، وتناصرها « دول
كبرى » ، أخرى .

كيف نلغي نظام الدول الكبرى . . ؟ كيف نهشم هذه الربوبية
الكاذبة في الأرض ، وكيف نذروها مع الريح . . ؟
هذا ينقلنا إلى النقطة التالية . .

هيئة الأمم المتحدة :

إن هذه المنظمة العالمية ، التي شكلناها غداة الحرب العالمية الثانية ،
والتي استهلت ميثاقها قائلة « نحن شعوب العالم » . .

هذه المنظمة ، تمثل أذكي وأقوم تجاربنا الإنسانية . .

ولكنها كأي مغمم من مغانمنا ، ومكسب من مكاسب تقدمنا -
مهدة بالتفسخ والاندحار ، ما لم نبذل في سبيلها من ذات أنفسنا ،
كل ما يطلبه بقاؤها ، واستمرارها ، وتفوقها - من إيثار ، وولاء ،
وتضحية . .

ولقد كانت « هيئة الأمم » تتوقع منا البر ، لالعقوق . . وكانت
تنتظر أن نمنحها من الولاء أكثر مما نمنح أنفسنا ، ودُّولنا ، وأفئسنا .

وكان هذا هو الطبيعي : لأن الولاء الذي نمنحه لإياها ، إنما نمنحه
في الحقيقة لأنفسنا . . فهئة الأمم هي : نحن . . هي أوطاننا ،
وحكوماتنا ، وشعوبنا . . هي عالمنا في أرقى مراحل تطوره المائل .

وإن الولاء الإنساني لهئة الأمم ، هو الدم الذي يملأ شرايينها
بالحياة . . فإذا حرَّمتها ذلك الدم ، فأنى لها البقاء ؟

لنتصور دافعي الضرائب في أية دولة ، امتنعوا عن دفعها ،
ولنتصور مواطني هذه الدولة ، وقد تكتلوا جميعاً في حركة تمرد
ظافر ضد دولتهم . . أتستطيع هذه الدولة أن تمارس حقوق سيادتها . . ؟

إن جميع الأمم ، وجميع الحكومات والدول ، مواطنون في نطاق هذه المنظمة العالمية . . وإن أى تمرد ترتكبه حكومة أو دولة في عالمنا كله ، يُعطل الهيئة عن ممارسة سيادتها ، وعن أداء رسالتها .

لذن ، فطبيعة العلاقات بين المواطنين في أمة ، وبين دولتهم . . كاملة الشبه والتماثل ، بطبيعة العلاقات بين الأمم كلها ، وهيئة الأمم التي تمثل دولتهم العليا . .

وهذا يقودنا إلى التنبيه على مسألة هامة .

فطبيعة العلاقات بين الناس ودولتهم تقوم على الثقة المتبادلة . . وهذه الثقة لا تباع ، فَكُشْتَرَى . . إنما هي ثمرة قيام كل بواجبه . . وأول واجبات الدولة تحقيق التكافؤ والمساواة ، والعدل بين مواطنيها جميعاً . .

وحين يختل هذا الميزان في يدها . وتضطرب مصائر الناس بين يديها ، تبدأ متاعبها ، ويهبّ المواطنون لقلبها والتخلص منها . . وحتى إذا لم يستطيعوا ذلك ، نجاهم يعاملونها بغير اكتراث ، وبغير احترام . .

وهذا هو الذى يحدث تماماً بالنسبة للعلاقات بين الأمم ، وهيئة الأمم . .

فالعلاقات بينهما ، يجب أن تقوم على ثقة متبادلة ، ثمرها صيانة

الهيئة لجميع حقوق مواطنيها الذين هم ، أمم العالم وشعوبه . .
فإذا أخلت الهيئة بواجبها حيال هذه الحقوق ، فإن التردد عليها ،
واقع لامفر منه . . وعدم الاكثارات بها يصير أمرا محتوما . .

وهذا هو الذى حدث لـ «عصبة الأمم» فأودى بها وجعلها
أحدوة ومثلا . .

ولكن ، ما هى الاعتبارات التى يمكن أن تصد «هيئة الأمم»
عن رعاية مواطنيها . . ؟

أهى الانانية ، ورعاية المصلحة القومية الخاصة . . ؟؟

إن هيئة الأمم ليست مؤسسة قومية . . بل عالمية . . وأعضاؤها ،
شعوب العالم . فالاحساس هنا ، عالمى لا قومى . . أو هذا على الأقل
ما يجب أن يكون . .

إذن ، فالقوى التى تحمل الهيئة على التخلي عن التزاماتها لن تكون
إلا دخيلة عليها . وإنما لكذلك فعلا .

وهذه القوى ، هى التى سردناها من قبل :

- رأس المال ، الذى يعمل اليوم فى نشاط جماعى عالمى . .
 - الأحلاف التى تقوم على تقسيم العالم .
 - السيادة والنفوذ القوميين ، اللذين تفرضهما دول كبرى .
- والعلاج بعد هذا يسير إذا أرادت البشرية، وإذا هبست لتحقيق ما تريد.

العلاج - أن نغزل القوى الثلاث السالفة عن مراكر وثوبها . .
وأن نضعها جميعاً في يد هيئة الأمم .

إن الحديث عن حكومة عالمية واحدة ، لم يعد خرافة ولا وهماً . .
والحكومة العالمية ، مقبلة لا ريب فيها ، مثلما أن مُضْحَى الغد
مُقبِل وآت . .

وليس معنى عدم توافر الظروف التي تسمح اليوم بقيام هذه
الحكومة - أن نكسف عن السعى المشترك لتهيئة تلك الظروف .

فإذا أردنا - ولا خيار لنا في ألا نريد - فأمامنا الآن أعظم
الفرص التي تقضى بنا إليها . . ألا وهي دعم هيئة الأمم . وطننا
الأكبر ، وملاذنا الأخير . .

ونحن من جانبنا نرى أنه لا بد من أن ننقل إلى اختصاص الهيئة
هذه القوى الثلاث :

- السياسة الخارجية . .
- العلاقات الاقتصادية ..
- العلاقات العلمية ، والثقافية . .

أما السياسة الخارجية ، فلا بد من التنازل عنها لهيئة الأمم تنازلاً
كلياً . ونقل اختصاصات وزارات الخارجية في العالم كله إليها .
وذلك يقتضى إلغاء وزارات الخارجية ، أو تحويلها إلى وزارات
تنفيذية لا غير . .

إن التضارب بين السياسات الخارجية للدول ، وما تعتمد عليه من مناورات ومؤامرات ، يقف وراء كل كارثة تنزل بالناس . . ولا بد لهذا ، أن تكون للعالم سياسة واحدة تقوم على تنسيق أوضاعه ، وتحرى سلامته . .

أما « العلاقات الاقتصادية » فيكون إشراف الهيئة عليها إشراف الحكم في مباراة نظيفة . . فهو يرصد نتائجها في أمانة ، ويمنع اللاعبين في كلا الفريقين من خرق النظام الموضوع . .

وإشراف الهيئة على الاقتصاد الرأسمالي ، سيعنى زجره عن الاحتكارات الضارة . وعن الاستعمار جرياً وراء الأسواق أو المواد الخام . . كما يعنى تنسيق علاقاته الداخلية بحيث لا ينجم عنه ظلم واستغلال .

واشرافها على الاقتصاد الشيوعي . يعنى إعطائه بوصفه نظاماً جديداً فرصة التجربة ويعنى زجره عن كل كبت وإرهاق . . وإشرافها عليها معاً على النحو المذكور لن يعنى إلغاء أحدهما ، بل يعنى إلغاء ظروف التصادم بينهما . . ويعنى تمكين قانون الاختيار التاريخي من الأخذ بأصلحهما .

أما العلاقات العلمية والثقافية ، فينبغي أن يكون إشراف الهيئة عليها أكثر من العلاقات الاقتصادية ، لأنها لا تحمل الحساسية التي تحملها الأولى .

ينبغي أن يكون إشراف الهيئة عليها كلياً - مثل السياسة الخارجية تماماً . . . مع أباحة الفرصة لكل الأفكار لكي تخاطب الناس . . . وأتاحة الفرصة للناس ، كي يعرفوا كل سبق على ، حتى تصبح المعرفة عوناً لنا على التقدم . . . لاسلحاً جديداً من أسلحة التفوق الاناني والغلبة الذاتية الإقتصاديين السائدين - الرأسمالية ، والإشتراكية . .

وهذا الإشراف الذي تنادى به ، يُمثل سبباً ونتيجة في نفس الوقت .

هو « سبب » لأنه سيعجل بظروف الأخاء البشري ويجعل من السلام حقيقة وواقعاً ومستقبلاً .

وهو « نتيجة » بمعنى أنه لابد أن تسبقه مقدمات تضمن سلامته ، وتؤمن حياة البشرية في ظله . والسبب والنتيجة هنا يندجان ويتفعلان بإشراف هيئة الأمن على السياسة الخارجية لدول العالم ، وعلى النشاط الاقتصادي والثقافي رهن بعزل نفوذ الدول الكبرى باديء بدء عن الهيئة . . وهو في نفس الوقت الطريق الوحيد ، لعزل هذا النفوذ عنها . .

ولذا ، اتحدت النتيجة والسبب في أمر واحد ، على هذا النحو ؛ فقد

بلغ هذا الأمر من الضرورة الحدّ الذي يجعل التخلّي عنه سفاهة وانتحارا .

أما كيف تنقل اختصاص دول العالم في السياسة ، وفي الاقتصاد ، وفي الثقافة . إلى هيئة الأمم ، فيمكن أن ينظم ذلك لجان من الخبراء والعارفين .

قد يقال . إن في هيئة الأمم شعباً ، للاقتصاد ، وللثقافة وغيرهما . ولكن الوضع مختلف كل لاختلاف عما ننادي به . .

أنا نريد ألا تكون لاية دولة أية سيادة على سياستها الخارجية . ونريد أن تخضع خططنا الثقافية ، لأشراف عالمي ؛ لأن تنوع الأهواء والمصالح المناطة بالسياسة والاقتصاد وبالثقافة هو الذي يخلق التصادم والنزاع .

ولنلاحظ جيداً - أننا نقول : تنوع الأهواء والمصالح ، فالثقافة . مثلاً ستظل محتفظة بتنوعها . بعد أن ينقضي إشراف الهيئة عليها الضراوة . وأغراض الدعاوة . .

وفي التنظيم الداخلي لهذا الإشراف سُراعى - مؤقتاً - ، جميع الفروق الطبيعية القائمة . . وسيظل مجال التنافس المشروع قائماً بين النظم الاقتصادية والاتجاهات الثقافية .

وكل ما هناك أن هذا التنافس سيقوم يومئذ لاعلى أساس من

أغراض الدولة ، ومآربها الخاصة . . وإنما على أساس الأهلية الذاتية ،
والموهبة الحقيقية لكل من النظم الاقتصادية ، والاتجاهات الثقافية . .
نحن نعلم أن التطور الداخلى لكل أمة من الأمم ، ضرورى لبناء
عالم جديد عظيم .

ولكننا نعلم كذلك أن هذا التطور الداخلى ، ينبغى أن يسير
وفق مبادئ إنسانية كبرى وشاملة ، مادامنا صائرين إلى عالم واحد فعلا
وإذا ما اجتازت هيئة الأمم ، هذه التجربة بنجاح وتوفيق ،
فأن الطريق يومئذ ، سينفصح أمامها ، فتشرف على القانون حتى
توحده ، وعلى البوليس ، حتى يعيش الناس داخل بلادهم فى أمن
أكثر ، وطمأنينة أوفى .

* * *

وعلى العالم ألا ينخدع بمحاولات التجمع التى تقوم الآن ، زاعمة
أنها طريق إلى تجمع أوسع ينظم البشرية كلها ، وزاعمة أنها تتم وفق
ميثاق الأمم المتحدة . . فما أكثر ما ينطوى عليه هذا الزعم
من كذب .

وأمامنا مثل واضح ، هو : « السوق الأوربية » . .
لقد كان من الممكن أن تكون هذه السوق محاولة طيبة ، ونموذجا
لما ندعو إليه . . لكن لأنها تمت لحساب مصالح إقليمية لا عالمية ،
فقد باتت بكثير من الأوزار .

إن هذه السوق لم تنعم لتقرب شدة الخلاف بين جهود اقتصادية
مسألة بريئة ، تريد أن تعيش ، وتدع غيرها تعيش . . بل قامت لحماية
مصالح دول توشك على الضياع ، ويوشك نفوذها الاستعماري
على الاندحار . .

ففي المعاهدة المبرمة بين الدول الأوروبية المشتركة في هذه السوق ،
عزم على « نشر سياسة الاستثمار العامة في السوق ، سيما المناطق المتخلفة
اقتصادية في شمال أفريقيا وباقي مستعمرات الدول الأعضاء » . . ١

ما علاقة شمال أفريقيا بأوربا . . ؟

إنه الاستثمار ينادى بعضه بعضا ، ويشد بعضه أزور بعض
ليواصل القدرة على بسط نفوذه .

فهذه السوق إذن ، تهدف إلى الاحتفاظ بمستعمرات الدول
المشتركة فيها ، وبعد أن أوشكت على الأفلات منها .

ولعل أوضح برهان على هذا تخصيص الدول المشتركة في السوق
مبلغ « ١٨١ » مليوناً من الدولارات لاستثمارها في مستعمراتها خلال
المرحلة الأولى من مراحل الاستثمار ومدتها خمس سنوات .

وقد قامت بتوزيع الملايين المذكورة على مستعمرات فرنسا ،
وإيطاليا ، وبلجيكا ، وهولندا . .

هناك تجتمع واحد لا غير ، هو الذى يتضمن سلامتنا - ذلكم هو
تجمع البشرية كلها ، من أجل أهدافها مجتمعة ، ومن أجل مستقبلها
مُوحّداً ..

أما تلك الجيوب التى تقام فى أرجاء عالمنا ، متنافرة متنابهة .
فهى عامل تمزق وتصدع .. أكثر مما هى عامل توحيد وتجمع ..

والتسويات الخاصة ، مصدر قلق دائم .. ولابد من تسوية
عامة لكل المشاكل الرئيسية فى عالمنا .. وليس أحد بقادر على مثل
هذه التسوية سوى هيئة الأمم حين تتمتع بسلطانها المشروع كاملاً .

عندما قام التناؤش بين الصين والهند ، أثناء زيارة «خروشوف»
لأمريكا - تفاءلت بهذا التناؤش كثيراً ..

وقلت لنفسى : لقد جاءت هذه الحركة فى أوانها - لنعلم تماماً .
أن الخلاف بين أمريكا ، وروسيا - ليس وحده مصدر الخطر
لعالمنا .. وإنما هناك مواطن خلاف أخرى وكثيرة ، يمكن
أن تجيئ منها أخطار أكيدة .. بل ويمكن أن تسبب حرباً ودماراً ..

من أجل هذا ؛ فواطن الخلاف والنزاع جميعها ، يجب أن
تواجه وتعالج .

وذلك يقتضى أن تعيش «هيئة الأمم» أياماً تاريخية كبرى تنجز
فيها ما يلى :

- إبطال كافة الأوضاع الاستعمارية ، وتحرير جميع الأمم ...
والجزر ، والقواعد من مستعمرها .
- إرجاع جميع الحقوق المغتصبة إلى أهلها ، ويبدأ هذا بأهل فلسطين .
- تصحيح الوضع الدول لكل الأمم ، ويبدأ هذا التصحيح
بفتح أبواب الهيئة لستائة مليون صيني . ١
- إلغاء جميع الاحلاف القائمة ، وتحريم قيام أحلاف جديدة .
- تعديل ميثاق الأمم المتحدة ، وبجاس الأمن تعديلا ينبغي كل
احتمال للتأثير على هاتين المنظمتين .
- تنظيم عمليات الإشراف الفعلي ، والتام على السياسة الخارجية .
لكل الدول وكذلك الثقافة الإنسانية ، ثم الاقتصاد العالمي ، تنظما
لايعنى دمج نُظُمه في اتجاه واحد .. وإنما يعنى تنسيق جهودها الحرة
تنسيقا يكفل إبعادها عن الشحناء ، وإكسابها قوة أكثر ، للعمل
من أجل الإنسان .
- حراسة المبادئ الرشيدة التي ينبغي أن يسير التطور الدخلي .
للأمم ، والتطور العام للإنسانية وفقها . وعلى رأسها الاحترام المطلق
للحرية الإنسانية ، والاستجابة التامة لكل مطالب المصير الانساني .

* * *

وبعد . ، فقد قلنا كلمات نحسبها مجدية .. وننادينا بأمر ، الحاجة -
إليها بالغة

وأكد أبصر القارىء، وهو يتأمل متسائلا : ونزع السلاح . .
لماذا لم تحدثا عن نزع السلاح . . ١٩٩٠

وللقارىء العزيز أقول : لقد نزعنا السلاح فعلا بما قدمنا من
مقترحات . حتى لو لم يرد فيها ذكر - أى ذكر - لنزع السلاح . ١
فالأسلحة ، إنما تُصنع ، وتشرع من أجل المآرب الخاصة
للدول . . فإذا حولنا هذه المآرب الذاتية . إلى مآرب إنسانية ؛ فقد
فقد التسليح كل مبرراته ومُسوّغاته . .

إن تطهير المصّب لا يُجدى قتيلا ، مادام المنبع نفسه يعج بالافتداز
وأذكى وسيلة لتطير المصب ، هى تطهير المنبع أولا . .
وقسوى السياسة ، والمال ، والمعرفة - هى المنابع التى يبدأ
بتطهيرها وتطويعها لأغراض التقدم الإنسانى ، عملنا وكفاحنا .
وهذا لا يمنع أبدا مضاعفة الجهود التى تُبذل اليوم لتحريم
الأسلحة ، وتسريح الحيوش .

* * *

إن تبعات الرشد تتادينا إلى واجبات قد تكون شاقة . . بل هى
شاقة فعلا . . ولكن لنذكر أن هذه المشقة تنطوى على أعظم فرصة
مُتاحة لنا . .

ولنذكر أيضاً ، أنه ، إذا كنا نريد الحياة للجميع . ؛ فسييل هذا
أن يصير العالم للجميع .

مَطْبَعَةُ مَخِيْمَرٍ
٢٩ شَاخِ ابْجِيشِ ت ٤٧١٩٢

للمؤلف ..

- ١ — من هنا . . . نبدأ
- ٢ — مواطنون . . . لا رعايا
- ٣ — الديمقراطية . . . أبدا
- ٤ — الدين في خدمة الشعب
- ٥ — هذا . . . أو الطوفان
- لكي لا تهرثوا في البحر
- ٦ — الحرية { الجزء أول
- ٧ — الحرية { الجزء ثان
- ٨ — سأل على الطريق ، محمد والمسيح
- ٩ — الإنسان
- ١٠ — أفكار في القمة